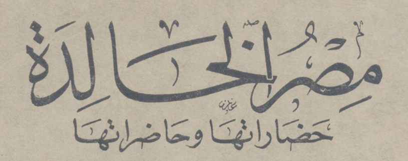


تأليف

حسن محمد جوهر

B.A. (hons) ,M.A.,F.N.G.S.

مراقب عام منطقة القاهرة الجنوبية

الجزء الأول

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة



تأليف

حسن محمد جوهر

B.A. (hons) ,M.A.,F.N.G.S.

الجزء الأول

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب بالجماميز ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة



حضرة صاحب الجلالة الملك

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

ان ذكر مصر فى التوراة والإنجيل والفرقان ، أذاع شهرتها بين مئات الملايين ، الذين يؤمنون بهذه الكتب المقدسة ؛ وإن أهرامها الفريدة ، وبقايا معابدها العظيمة ، وآثارها الأخرى ، التى كشف عنها الباحثون من العلماء ، جعلها ملء سمع العالم وبصره ، وجعل اسمها على ألسنة مئات الملايين ، الذين يطلبون المزيد من العلم عنها وعن ملوكها الصيد ، الذين جبروا العالم ، وزلزلت جيوشهم الأرض .

وإنه ليؤسفنا كثيرا ، أن مناهج التعليم فى مصر ، لا تمد الطالب فى التاريخ المصرى إلا بقشور ، لا تمكنه ، إذا مادعاه داع للسفر إلى البلاد الأجنبية ، فسأله سائل عن أى موضوع من موضوعاته ، من الإجابة الصحيحة الشافية عنه .

وفى صيف سنة ١٩٢٤ وجدت نفسى فى دانمارك محاطا بطائفة من الدانمركيين المتعطشين إلى معرفة كل مايمكن معرفته عن مصر وفراعينها وآثارها ، والذى دفعهم إلى هذا ، كشف قبر توت عنخ آمون فى هذه السنين ، والذى طيرت أوصاف كنوزه الثمينة فى أنحاء العالم المتمدين آنئذ ، فنوه بشأن مصر ، وزاد فى شهرتها ، ودعا الناس إلى استكناه مدنيتها الفرعونية المجيدة .

وقد كشف لى هذا الحادث حقيقة مرة ، تلك هى ضآلة علمى بتاريخ أمجد عصر من عصور مصر الخالدة . لذا آليت على نفسى أن أعكف على دراسته وأن أجمع كل ماتصل إليه يدى من مراجعه .

وفى ربيع سنة ١٩٢٧ كنت فى انجلترا ، ودعيت لسماع محاضرة عن مصر ، ألقاها أحد علمائها الأفذاذ ، فخرجت منها مثلوج الصدر ، مزهوا ، مشيعا بالإكبار

والتقدير من زملائى الطلبة والطالبات ، لأن المحاضرة كانت كلها عقود مدح فى مصر ومدنيتها الخالدة : فقد كان مما قاله ذلكم المحاضر العالم « إنكم لو سئلتم عن البلد الذى قام أهله بأكبر قسط من الاختراعات ، فإنى أوقن بأن أذهانكم متجهة ، ولا شك ، إلى أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا ، ولا يخطر ببال واحد منكم أن يذكر البلد الذى قام أهله باختراع أكثر المخترعات ، التى وفرت للناس الراحة والاستمتاع بالحياة . فاشرأبت أعناقنا إذ ذاك لمعرفة هذا البلد . فلما قال : إنه مصر ، فغرت أفواه الطلبة والطالبات اندهاشا ! فكان ذلك على قلبى بردا وسلاما ، وشحذا لعزيمتى على الاستمرار فى استكمال ما بدأته من دراسة تاريخ مصر الفرعونية .

ومرت الأيام سراعا ، ووجدت نفسى فى سنة ١٩٤٠ ناظرا لمدرسة الزقازيق الثانوية ، وجاء إلى جماعة من الاساتذة والطلاب ، يعرضون إصدار مجلة المدرسة على النمط المعهود فى المدارس ، من الكتابة فى موضوعات لا ترتفع عن آفاق العامة ، ولا تمد القارىء بجديد ، فحدثتهم حديثا طويلا ، أقنعهم بأن يستبدلوا بالمجلة كتابا عن الشرقية ماضيها وحاضرها ، يذكرهم بمجد أجدادهم التالد ، ويقفهم على آثارهم المجيدة ، وحياة البارزين من عظماء أقليمهم ، ليتأثروا خطاهم فى أطوار حياتهم .

وحينما قسمت موضوعات الكتاب لم أجد من الأساتذة بله التلاميذ ، من يستطيع الاضطلاع بالكتابة عن الشرقية الفرعونية ، للأسباب المؤسفة التى ذكرتها فى صدر هذا التقديم ، وكنت قد أعددت نفسى للكتابة فى جغرافية الشرقية ، لتخصصى فى علم الجغرافية ، ولكنى رأيت نفسى مضطرا للكتابة فيها (مصر الفرعونية) وسهل على ذلك مجموعة الكتب النادرة التى كنت قد جمعتها ، والدراسة الخاصة التى درستها ، فجاء مقالى عن مصر فى عهد الفراعنة مختصرا ، ولكنه جامع شامل ، فاتخذته أساسا لهذا الكتاب .   وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت .

المؤلف

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أتى على أرض مصر ، كما أتى على غيرها من بقاع الأرض ، آماد من الدهر لم تكن ، ثم كانت . ثم اعترى وجه أرضها التغيير والتبديل : فاختفى بعض أجزائها فى البحر ثم ظهر ، وعلا بعضها ثم انخفض ، ونقص بعضها وزاد بعضها الآخر .

وما لبث النيـــل الذى لم يكن أن كان ، وانحدر إليها من ذروات هضبات أفريقية الوسطى وأعالى نجادها ، فـكون أرضها الخصيبة المتجددة ، وجادها بمياه موفورة ، يجمعها من أقاليم بعيدة متباعدة ، ينزل فى بعضها المطر درا كما فى فصل الصيف ، ويسقط فى بعضها الآخر فى الفصول كلها ، فتتحمل جميعها وطأة مقدماته ومؤخراته : من عواصف وغيوم ، وبروق ورعود ، وأجواء رطبة قابضة ، وبلل ينفذ إلى الأجسام ، وأوحال تعوق المسير ، ومستنقعات تنشر الأمراض ، وغابات كثيفة تتضاءل أمامها قوى الإنسان الجسمانية والعقلية ؛ بينما تنعم مصر بماء عذب فرات ، وأرض خصيبة ، وشمس ضاحية ، ونهر ميمون ، تجرى فيه الفلك المشحون ، يحملها تياره هابطة من الجنوب ، ويحدوها ريح الشمال صاعدة إليه .

ولقد شاء حسن طالع مصر أن تكون حيث كان مناخها معتدلا ، فأعفاها من التعرض لحر الجنوب اللافح ، وبرد الشمال القارس ، وأن تكون رياحها إلا أقلها رخاء تحيي النفوس ، وتنعش الأبدان . كما شاء لها يمن الطالع أن تكون فى مكان وسط بين القارات القديمة : فهى من أفريقية فى شمالها الشرقى ، وأبوابها الغربية والجنوبية الغربية والجنوبية مفتحة على مصاريعها لمؤثرات بقية أجزائها ، ولمؤثرات القارة الأوروبية ، التى تريد أن تتصـل بها : فبينهما فى الغرب مضيق يحول دون اتصال أرضهما ، ولـكنه لا يحول دون اتصال أحيائهما .

وتجاور من الشرق آسيا ، مهبط آدم ومنشأ أبنائه ، ومنزل الوحى ، ومغنى أنبيائه . وتمتد أرضها من غير احتجاز ، وبينهما فى أقصى الشمال باب مفتوح (١) ، سلكته البطون المهاجرة ، والسيارات المتاجرة ، كما نفذت منه الثقافات التى نبتت فى الشرق وترعرعت فيه (٢) .

كما شاء أن تمسك سماؤها ماءها بعد إغداق ، فتتكون عن يمين أرضها الخصيبة ، هضبات محلة ، صعبة المرتقى وعرة المنحدر ، وعثة المسالك ، وعن شمالها مهامه داوية مغبرة جرداء ، وقياها شرور جاراتها ، ومنحاها الأمن والسلامة والطمأنينة والاستقرار . كما شاء ألا تكون جاراتها بحال من القوة والبأس وسعة السلطان ، تقض مضجعها وتشغلها عن شئونها الداخلية بمناصبتها العداء .

وجاء إلى مصر فى أول العمر أقوام مختلفون ، فى عصور متباينة ، من أبوابها المتعددة ، وعليهم سيما حضارات متنوعة ، مدموغة بطابع بيئاتهم الأولى متأثرة ببيئات طرقهم الطويلة التى سلكوها . ولما أناخوا فيها ، رمت بهم طائعين فى أتون بيئتها الخاصة (٣) فصهر ظواهر حضارات بيئاتهم الأولى وبواطنها ، وصبهم جميعاً فى قالبها الخاص ، فأخرجت للعالم مدنية رائعة مجيدة ، قبستها أثينا ، ومشت على هدى منارها روما ، وشع منها نور على العالم القديم ، وعبرت اشراقاتها البحار إلى العالم الحديث ، وستجد أيها القارىء الكريم قصة هذه المدنية فى فصول هذا الكتاب .

---

(١) يذهب بعض الجغرافيين الى أن الباب الشمالى وهو برزخ السويس كان فى أول العمر قليل الأهمية ، لما كان فيه من مستنقعات تصد البطون البدائية التى تحاول اختراقها !

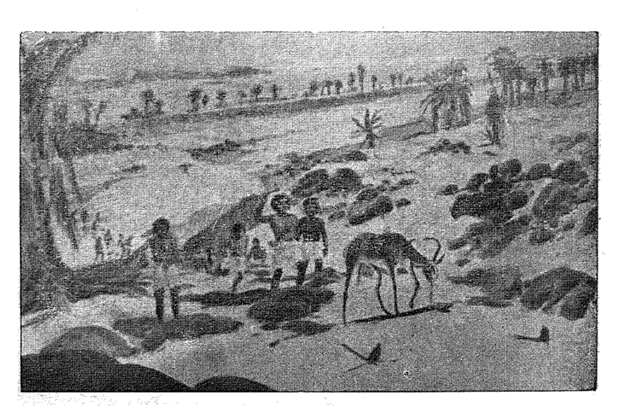
(٢) لقد جاء اول جماعة إلى مصر سالكين بابها الجنوبى بعد أن جاءوا من آسيا عن طريق مضيق باب المندب ، وكان أشد أقل اتساعاً وغورا مما هو عليه الآن .

(٣) لم تكن أي جماعة من تلك الجماعات بحال من القوة ، أو على درجة من الرقى ، تستطيع معها استبدال حضارتها بحضارة سكان مصر السابقين ، بل كان الأمر على النقيض من ذلك ، أى أن الوافدين كانوا يتنكرون لماضيهم طائعين ، ويتخلقون بأخلاق السكان ويتزيون بأزيائهم ، ويقلدون عاداتهم ، ويعبدون أربابهم .

الفصل الأول

المصريون الأولون

فى أوائل العصر ، وحين كانت سهول مصر أو أرضها السوداء (بـا-تا-ن-كمى) تتغطى بآجام كثيفة من القصب ومن النجم والشجر المختلط ، تأوى الطيور إلى عشاش أغصانها ، وتسبح التماسيح وأفراس البحر فى جداولها وغدرانها ، وفى نهرها العظيم الميمون ، الذى كان يجرى من تحتها آنا ويغمرها آنا ، وحين كانت هضباتها الشرقية ،ونجادها الغربية تختبىء فى كلأ مشعث وأشجار متفرقة تتقارب حتى تصبح غابات فى وديان أنهارها ، تسرح فى جنباتها الغزلان والظباء والأيائل والمها والوعول والأغنام الوحشية والبقر الوحشى والنعام والفهود والأسود والذئاب



سكان مصر الأولون يطردون الغزلان

والضباع والفيلة [١] فى هذا العهد الوحشى الذى لم تكن مصر تعرف فيه الزراعة ، ولم يكن الصائد الشموس ولا الراعى الشرس ، قد تحولا بعد الى فلاح مستقر وادع : كان يسكن مصر جيل من الناس يتخذون من الكهوف بيوتا [٢] أو ينزلون خصاصا مشرفة من رءوس الربا على بطون الوادى الريان ، يصنعون من الظران أسلحة [٣] بها يصيدون الطير ، ويطردون الوحوش الضارية تاركين شئونهم الهينة وأمورهم

أسرة من سكان مصر الأولين تأوى إلى كهفها

الساذجة إلى رؤساء البطون والعشائر ، شأنهم فى ذلك شأن الأمم المتبدية ، التى

(١) لقد وجدت رسوم ساذجة للفيلة ، كما وجدت نقوش لها على مقابض المدى المصنوعة من العاج ، وقد وجدت رسوم لمناظر صيد الفيلة فى أوائل العصر . ويذهب سليم حسن بك إلى أنه من المحتمل جداً أنه كان يصاد فى الوجه قبلى ، فى اقليم أسوان حين كانت هذه الأصقاع اكثر أمطاراً وبيئتها مناسبة لحياة الفيلة وغيرها من حيوانات أطراف الغابات الحارة .

(أنظر سليم حسن بك مصر القديمة الجزء الثانى من صفحة ١٠٠ — صفحة ١١٤) .

ويرى الأستاذ بترى أنه كان فى مصر فى ذلك العصر البعيد غير الفيل حيوانات كثيرة أخرى لا توجد الآن إلا فى أواسط أفريقية (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) .

(٢) كان يعيش أولئك الأوائل على الالتقاط والجمع والصيد ، ويتخذون سلاحهم من الحجر الصلد الصوان ، كما توضح ذلك مخلفاتهم التى وجدت مبعثرة فى بعض جهات الهضاب الشرقية والنجاد الغربية .

(٣) ا — يرى بعض العلماء أن الرواسب التى وجدت فيها تلك الأسلحة والادوات الأخرى =

لا يجتمع لها شمل ولا تخضع لسلطان عام [١] وكان لكل بطن من أولئك القوم إله يرجون خيره ، أو يتملقونه اتقاء لشره .

ولقد دامت هذه الحال فى مصر ماشاء الله أن تدوم ، حتى أذن الله ذات حين

= تكونت قبل أن يخلق نهر النيل أي أن هؤلاء القوم وفدوا على أرض مصر قبل أن يشق نهر النيل الحالى مجراه فيها .

(٣) ب — ويذهب بيدنل (Beadnell) إلى أن وجود هذه الأدوات والأسلحة الصوانية فى بعض جهات الهضبة أو النجد لا يقوم دليلا على أنها كانت يوما موطناً صالحاً للانسان ... إلى أن يقول على أن معظم هذه الأدوات والأسلحة قد وجدت مبعثرة على حافتها ، لا فى بقاعها الداخلية ، أي أنها وجدت حيث يكون حجر الظران فى متناول سكان الوادى .

وعزز رأيه بأنه كثيراً ما شاهد بعض الفلاحين من سكان الوادى الحاليين يضربون فى نجاد مصر وهضابها باحثين منقبين عن الملح الصخرى فى مظان وجوده ، حتى إذا ماعثروا عليه حملوه إلى الوادى . وأنه قام برحلات كثيرة اخترق فى أثنائها الصحراء اللوبية وبعض أجزاء الهضبة الشرقية ، فلم يعثر فى أى بقعة من بقاعها على بقايا أى نوع من أنواع الانسان .

(١) لا نعرف عن هذا الجيل من الناس على وجه التحقيق إلا أنهم كانوا يعيشون على صيد الحيوانات وبخاصة الغزلان . ويذهب بترى العالم الأثرى المعروف إلى أنهم كانوا شديدى الشبه بقبائل البشمن (Bushmen) فى أشكالهم وطرق معيشتهم . والبشمن أقوام منحطة يسكنون صحراء كلها رى ويعيشون على الصيد وجمع الثمار والجذور والجراد والحيات والضفادع ، ويأوون الى الكهوف والغيران وإذا ما أصحروا أو طلبوا الصيد فى الآجام ، نصبوا بيوتا حقيرة من الجلود والخرق البالية أو ناموا فى العراء ، وسلاحهم القوس والسهام المسمومة . وهم كالأعراب المهرة فى ارتياد الصحراء واقتفاء آثار الانسان والحيوان ولكنهم يبزونهم فى القدرة على استنباط الماء من حنايا الأراضى الصحراوية ومعرفة مستقره ولم يعثر على أثر هؤلاء أعني سكان مصر الاولين الذين سكنوا نجاد مصر قبل اقفارها سوى أدوات قليلة من حجر الظران «وجدت مبعثرة فوق الصحراء أثر تآكل الطبقة الصخرية التى كانت تغطيها » وسوى بعض الطيور التي وجدت منقوشة فى بعض كهوف جبال العوينات . .

ويغلب على الظن أن المصريين الأسبقين والبشمن شعبان أو بطنان من قبيلة واحدة جاءا إلى افريقية عن طريق مضيق باب المندب ، الذى كان كما قدمنا ضيقا قليل الغور ، ، فلم يقف حجر عثرة فى سبيلهما — وحالهم البدائيه حالهم — ثم طوفا فى أنحاء إفريقيه ماطوفا ولم يلبثا أن استقرا فى مكان ما ، تطورا فيه ، وتأثرا ببيئته ، ثم افترقا ، واستأنفا الطواف ، وانتهت خاتمة المطاف بأحدهما إلى صحراء كلها رى ، وبالآخر إلى بعض أنحاء مصر ، فكان الأساس الأول لسكانها .

أن تمسك سماؤها ، وكانت جوادا [١] بخف الـكلأ من النجاد المحيطة بالوادى [٢] دونه ، لاعتمادها فى ريها على الأمطار وحدها ، واعتماده عليها وعلى ماء النهر ، وقل حيوانها ، فانحدر سكانها مهاجرين إليه وإلى سهول الدلتا التى انحسر عنها الماء ، فلقوا فى أرضها السوداء سهلا ، ووجدوا فى ماء النهر غنية عن ماء المطر ، واطمأنت بهم الحياة الجديدة ، وأصبح الوادى بذلك أصلح لسكنى المصريين الأوائل مما يحوطه من نجاد وهضاب .

ويعد هذا التطور فى حياة سكان مصر حدا فاصلا بين عصرين ، يسمى الجغرافيون العصر الأول بالعصر الحجرى القديم ، حين كانوا عبيدا لبيئتهم ، يقتاتون بما تجود به الطبيعة عليهم ، ويتسلحون بما يجدونه من حجر أو أغصان الشجر . ويسمون العصر الذى تلاه بالعصر الحجرى الحديث ، وهو العصر الذى بدءوا فيه يتحررون من رق العبودية التى فرضتها عليهم بيئتهم ، فهذبوا الحجر ، وشذبوا أغصان الشجر .

---

(١) يرى بعض الثقات أنه قد أتى على مصر — واديها ودلتاها وهضباتها ونجادها حين من الدهر (عصر الجليد الرابع) كانت غزيرة المطر بسبب هبوب الرياح الغربية الممطرة عليها نتيجة — فى رأى بعض الجغرافيين — لتزحزح القطبين عن موضعهما لترنح الأرض (Wobbling of The Earth) ثم بدأت أمطارها تقل بسبب رجوع قطبي الأرض الى مكانهما ، وتقهقر الثلوج التى كانت تغطى شمال أوربا وجل جبالها نحو الشمال ، وانتقال الأقاليم المناخية نتيجة لذلك ، فأصبحت مصر فى منطقة الرياح التجارية الجافة معظم أوقات السنة ، بعد أن لبثت زمانا متمتعة بالرياح الغربية الممطرة طول السنة كما قدمنا . راجع نظرية جفاف شمال افريقية وشرق آسيا للاستاذ هنتنجتن (Huntington) وآراء معارضة كأمثال الدكتور جرجورى .

(٢) لقد كان جفاف هضاب مصر الشرقيه ونجادها الغربيه تدريجيا ، فقد لوحظ بعد فحص ماعثر عليه فيها من آثار الانسان والحيوان أن الحيوانات التى تسكن الغابات عادة ، كانت سائدة فى بادىء الأمر ، ثم بدأت تقل ويظهر بينها حيوانات تعيش عادة فى الأقاليم الجافة والصحراوات ، ثم توارى النوع الأول وساد النوع الأخير .

ويذهب بول (Ball) الى أنه كان أكثر من عصر مطير واحد ، وأكثر من عصر جاف واحد ، وأنها كانت تعقب بعضها بعضاً ، وكان الانسان يستجيب لظروفها ويتأثر ببيئاتها ، أى أنه كان فى العصور المطيرة يهجر الوادي الشرق بمائه ويلوذ بأكناف الهضاب والنجاد القريبة من الوادي سعياً وراء رزقه من الصيد والقنص .

ولم يلبث هؤلاء السكان الأولون أن وفدت عليهم قبائل وبطون من سكان الجهات المجاورة التي أصابها الجدب فاندمجوا فيهم.

فلما وفدت تلك القبائل إليهم تضاعف عددهم، وازدحمت بهم الضفاف، ورأوا



يصطادون الطير في الوادي الريان

صيد البحر، وقنص البر، وجمع الثمرات دون ما يحتاجون إليه من طعام: فاستأنسوا الأغنام والماعز والبقر والحمر. واتخذوا من بعضها مركبا ذلولا. وانقلبوا فلاحين

يستنبتون القمح (١) والشعير (٢) . وغيرهما من الحبوب ويبتدعون الآلات الزراعية، التى كانت من شأنها توفير الوقت والمجهود الإنسانى ، فكثرت الثمرات ، وتنوعت الغلات ، وأمكن قليل من الأرض ، أن يعول كثيرا من السكان ، الذين استبدلوا بحياة التنقل حياة الاستقرار (٣) ، فأنشئوا القرى والبلدان على ضفاف الترع والنهر وفراعه ، أو على ربوات صناعية مبعثرة بين الحقول والرياض ، ونتج عن هذا قيام صناعات متعددة كصناعات اللبن والبناء والنجارة والنحت ، وتخصص فى كل صناعة أفراد عرفوابها ، ونسبوا إليها ، وورثوها أبناءهم ، وتحسن ماعون البيت وأثاثه وفرشه ، وارتبط أفراد الأسر برباط متين ، وتوثقت عرا الصداقة والتعاون بين أفراد القرية أو البلد الواحد ، فتواصلوا وتآزروا وتعاونوا . وما لبثوا غير قليل

(١) يزعم المصريون القدامى فى أساطيرهم أن ازيس هى التي استنبتت القمح . وذكر بلو رتارك (ص ١٧٨ من كتاب بغية الطالبين ، لأحمد بك كمال) الأسطورة التالية = « اتفقت الثلاث معبودات الأصلية بمصروم أزوريس (الشمس) وإزيس (القمر) وتحوت (ويرمز به المصريون للفطنة الالهية) وهو عندهم المبتدع للعلوم والفنون والصناعات والكتابة ، وشارع الدين ، ومبين شعائره ، والمعلم الأول لعلوم الفلك والهندسة والحساب ولفن البناء والنقش والتصوير والموسيقى ، ومخترع الميزان والمكيال ، اتفق الآلهة الثلاثة أن يتركوا السماء بقصد اصلاح الأرض بطيباتهم . فلما هبطوا إليها ابتدعت ازيس القمح ، وابتدع أوزير عدد الفلاحة . فكان أوزير أول من عاق الثور فى المحراث ، وأورد للناس أنواع الثمار ، ثم لما صار ملكا على مصر ، أنقذ المصريين من وهدة الفقر وحضيض الذل ، وعلمهم الفلاحة والزراعة ، وسن لهم قوانين تداولوها ... الى آخر قصة أوزير وايزيس وحور . انظر بغية الطالبين لأحمد بك كمال .

(٢) انظر سليم حسن بك — مصر القديمة ، الجزء الثانى من ص ٧٨ ـ ص ٩٠ (الحبوب التى كانت تزرع فى مصر والخضر ونباتات الألياف) .

ولقد فحص نوع الشعير الذى كان يزرع فى مصر منذ نحو ٥٠٠٠ سنة أى فى العهد المرمدى فوجد أنه أفريقى الأصل وشديد الشبه ببعض الأنواع التي تزرع فى مصر الآن ، أى أن تطوره فى هذه المدة الطويلة ضئيل جدا ، وهذا من غير شك دليل قاطع على أن المدة التي لزمت لتطور الشعير من نبات برى إلى شعير مرمدة بني سلامة كانت عظيمة وعظيمة جدا قد تبلغ مائة ألف سنة أو تزيد .

(٣) لقد ظل أولئك المصريون الأولون ملتزمين حافات النجدين المطلة على الوادى وأرض الوادى العالية الحافة بالنجدين طيلة مدة العصر الحجرى الحديث ولم ينخرطوا إلى بطون الوادى الا بعد أن ردم النيل المستنقعات التي كانت على جانبيه بما كان يأتى به من الغرين والطمى ، وقد وافق هذا عصر المعادن .

حتى تقدمت بهم الحضارة ، فأقاموا حكومات راقية منظمة للمحافظة على الأنفس والأموال ، وللقيام بأعمال جليلية ، كتجفيف المستنقعات ، وتطهير المجارى المائية من السدود النباتية ، واجتثاث غاب القصب ، وأجمات النجم والشجر ، ومشروعات الري العظيمة كإقامة الجسور على النهر وفروعه ، وحفر الترع لسقى الأرض البعيدة عن ضفة النهر ، وتشييد السدود والقناطر ، وغير ذلك من الأعمال التى يعجز الفرد أو الجماعة القليلة العدد عن القيام بها ، وبذلك نشأت على مر السنين بيئة زراعية راقية ، ابتدعت زراعة حبوب ونباتات أخرى كثيرة غير القمح والشعير ، نقلها عنها العالم ، كما نقل عنها طرق الزراعة وأساليبها ، وأصول الفنون والعلوم المختلفة التى نشأت فى هذه البيئة الراقية واتقنت فيها [١]

وكان من النتائج الهامة لقيام الزراعة زيادة غلة الأرض عن حاجة سكانها ، فأدى ذلك إلى ضرورة تصريف الفائض ، فقامت بذلك التجارة، التى بدأت بالمبادلة وانتهت بابتداع العملة . ولقد نجم عن قيام التجارة نشوء الأسواق والمدن التجارية على ضفاف النهر أو أحد فراعه ، وعند ملتقى الطرق .

وبقدوم أولئك المهاجرين إلى مصر، واستقرارهم فى أرضها السوداء الخصيبة ، بدأ عصر الحضارة المصرية الأولى ، ومدته ألف سنة أو تزيد قليلا . بدأت منذ نحو ١٠٫٠٠٠ سنة ، وانتهت منذ نحو ٩٠٠٠ سنة .

وتمتاز هذه المدنية بميزات أهمها — إنشاء المدن الكبيرة ، وإقامة الأسوار القوية حولها ، لاتقاء غارة الأعداء ، وكثرة استعمال السفن للتجارة ، والقوارب للصيد بالشص ، وتقدم صناعة الخزف ، وزخرفة الأوانى الفخارية بالرسوم الهندسية الدقيقة ، واستخدام حجر الصوان فى صناعة الرماح المتفرعة ، وبعض الآلات الزراعية الأولية ، وظهور معدن النحاس ، واستخدامه فى صناعة بعض الآلات ، واستعمال الأمشاط للزينة وانتعال الأخفاف .

وتشبه هذه الحضارة فى كل ما ذكرناه من مظاهر ، حضارة المورى ، سكان

(١) لقد كان المصريون أول من ابتدع الفأس للزراعة ، والمنجل للحصاد ، والمحراث لشق الأرض . (انظر أسطورة أوزير)

نيوزيلاند الأصليين ، من بعض الوجوه ، وحضارة بعض القبائل التى تسكن طرف الصحراء الكبرى فيما يلى الجزائر من وجوه أكثر .

وإن شبهها العظيم بحضارة القبائل الجزائرية يحملنا إلى الظن بأنها نتيجة لهجرة واسعة النطاق، قامت بها قبائل ليبية، وسميت لذلك بالحضارة الليبية[١] . على أن تناقص الأمطار الذى أشرنا إليه لم يكن مقصورا على شمال أفريقية، وبخاصة جزؤها



غربى

(١) يرى بعض المؤرخين أن الليبين قوم حور أو أوزير لأن أساطيرهم تشير إلى أنهم آتون من الغرب، ويقال إنهم هم الذين هزموا سكان مصر الأولين وأخرجوهم من ديارهم منقسمين إلى ثلاث فرق ، فرقة فرت إلى سيناء ، واتخذتها موطناً ومقاماً ، وفرقة هربت إلى صحراء مصر الغربية ، وأناخت بواحاتها ، والفرقة الثالثة لاذت ببلاد النوبة ، وجعلت الشلال الأول بينها و بين الغزاة حدا منيعاً .وفى ذلك يقول الاستاذ برستد (إن مصر السفلى كانت دائماً عرضة لغزوات الليبين الساكنين غربيه ، وكان يتخلل الغزوات هجرات تأثر بها الجزء الغربى من الدلتا الذي اصطبغ بالصبغة الليبية التى بقيت ظاهرة حتى زمن هيرودوت المؤرخ المشهور) ج . برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح العثمانى ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٢١ .

ويرى بعضهم أن قوم حور جاءوا مصر من الجنوب عن طريق بلاد النوبة أو من الشرق عن طرق وادى حمامات — سليم بك حسن — مصر الفرعونية الجزء الأول ص ١٤٣

الذى تشغـــله الآن الصحراء الـكبرى بل شمل جنوب غرب آسيا وشبه جزيرة العرب وشبه جزيرة سينا وصحراء مصر الشرقية بخاصة ، إذ عم أرضها الجفاف (١) الذى تأثر به سكانها ، فهاجر إلى مصر بعضهم . وبذلك فتح باب مصر الشرق لمهاجرة المشارقة . غير أن عددهم كان فى بادىء الأمر قليلا ، ثم زاد تدريجيا ، حتى بلغ مداه فى أواخر القرن الواحد والسبعين قبل الميلاد ، إذ أغار على مصر قبائل وبطون

الداخلون من البـاب الشرق

(١) راجع كتب الاستاذ هنتنجتن)

شرقية فأناخوا فى جهاتها الشمالية الشرقية ، وربما نفذوا إلى جل أنحائها ، وبخاصة فى جهات الدلتا الشرقية وفى أرض الوادى شرقى مجرى النيل [١] .

وبقدوم المشارقة توارت تدريجا مظاهر الحضارة الليبية ، وحلت محلها مظاهر أخرى لابد أن يكون قد جاء بها المشارقة ، وبذلك بدأ عصر الحضارة الثانية ، أو الشرقية ، ومدتها نحو مائتى سنة وألف [٢]

ومن مميزات هذه الحضارة استعمال الفضة واللازورد والذهب والرصاص فى الصناعة ، واستبدال صناعة الحجر بصناعة الفخار . فصنع من الأحجار المجلوبة من الصحراء الشرقية كثير من الأوانى المنزلية كالأباريق والأكواب التى كانت غاية فى اتقان الصنعة ونهاية فى جمال المنظر .

ومن أهم مظاهر هذه الحضارة السفن الضخمة التى يبلغ طول إحداها ستين قدما ونيفا ، ويبلغ عدد مجاديف بعضها ١٢٥ مجدافا .

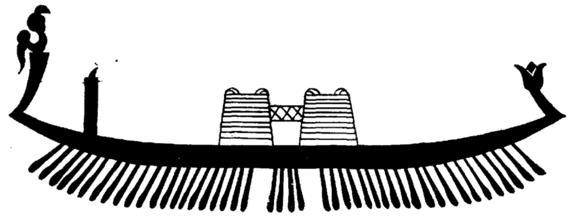
وعلى هذه السفن العظيمة حملت مصدرات مصر من بضاعات صناعية

---

(١) وترجيح الظن أن سكان جهات الدلتا الشرقية ، وبقاع الوادى الواقعة شرق مجرى النيل ، ظلوا منذ أن وفدوا عليها من الأقاليم الشرقية المجاورة ، محتفظين بطابعهم الشرقي ومميزاتهم الجسمانية والثقافية والدينيه ، بلغاتهم وتقاليدهم وأزيائهم الشرقيه ، التي كانت تختلف جدا لاختلاف عنها عند الغربيين ، ظلوا كذلك إلى أن اندمجت الفئتان تحت إمرات متعددة ، أو إمرة واحدة انتظمت البلاد كلها ، فتلاشت أوجه الخلاف تدريجيا فى بادىء الأمر ، ثم لم تلبث أن اختفت تمام الاختفاء فى أوائل عصر الاسرات ، واختفت نتيجة لذلك الاتحاد عادات وتقاليد وصفات ومميزات من كل من الفئتين وبقى الأقوي والأصلح منها .

(٢) كتب الأستاذ برستد فى كتابه — تاريخ مصر من أقدم العصور ... عن هذه الهجرة السامية ما يأتى . — يرجع تاريخ الهجرة السامية الأولي الى عصر ما قبل الاسرات المعروفة ، وقد تكررت هذه الغزوات أو الهجرات بعد ذلك مرات فى العصور التاليه . ولا نعرف تاريخ تلك الغزوة على وجه التحقيق ، ولا الطريق الذي سلكه أولئك الغزاة ، ويغلب على الظن أنهم أتوا عن طريق برزخ السويس كما فعل العرب المسلمون . ولما دخل هؤلاء الغزاة مصر عمموا لغتهم الساميه ، ولكنهم سرعان ما طبعوا بالطابع المصرى ، وتخلقوا بأخلاق المصريين ، واعتنقوا دينهم . وليس أدل على ذلك من أن ديانة سكان وادي النيل حافظت على مصريتها تماما ...

وزراعية إلى البلدان المجاورة ، ووارداتها من زمرد وكهرباء من الأناضول ، وزيت من جزيرة اقريطش (كريت) ، وخشب من سواحل سوريا .



على أشباه هذه السفينة حملت تجارة مصر منذ نحو ثمانية الآف سنة (٨٠٠٠ ق م — ٧٧٠٠ ق م)

وفى هذا العصر تقدمت صناعة الآلات النحاسية ، وظهرت صناعة الحديد ، على الرغم من ندرته ، وغلو ثمنه . وكذلك صناعة المنسوجات الكتانية خطت خطوات واسعة ، وارتقت الحياة الاجتماعية رقيا كبيرا . فصفت فى المنازل الزرابى والسرر والكراسى ، التى تجلى فيها وفى غيرها من أثاث البيت جمال الفن . وفرشت بالوثير من الفراش . ولبس الرجال الملابس الكتانية البيضاء والخفاف ، ولبست النساء حللا طويلة تغطى أجسامهن إلى أخمص أقدامهن . وتحلين بالأقراط والقمارى والأساور والعقود ، وتجملن بأفخر الثياب ، وزججن حواجبهن ، وكحلن عيونهن وصبغن وجوههن . ولكن كن يلبسن نقابا يشبه ما يلبسه البدويات فى الوقت الحاضر .

الفصل الثاني

لم تلبث البطون والعشائر التى ألمعنا إليها فى صدر الفصل الأول أن نمت وترعرعت وكثر عدد أفرادها ، حين حلت فى أرض الدلتا والوادى الخصيب ، فرويت وشبعت ، وأصبحت قبائل قوية ، تعتز بعصبتها ، وتحمى حماها وتذود عن حياضها ، وتدفع المعتدين عن الأراضى التى تملكتها وسوتها وأنبتت فيها الحبوب والثمار والأشجار.

على أن هذا النظام القبلى الذى كتب له البقاء والدوام فى البيئات الصحراوية والراعية ، لم يعمر طويلا فى بيئة الوادى الخصيب ، إذ سرعان ما اختارت هذه القبائل بقاعا من الأرض ، قرت فيها نهائيا وتملكت ما حولها ، ورضيت كل قبيلة حدودها ، بعد أخذ ورد بينها وبين جاراتها . ولا يبعد أن يكون قد شجر أكثر من خلاف بين كثير من القبائل المتجاورة ، أدى بعضه إلى حروب شعواء ، تلفت فى أثنائها الزروع ، وسالت فيها الدماء . وبهذا تحول النظام القبلى إلى نظام الولايات الصغيرة التى كانت تجتمع مصالح أهل كل منها ورداوصدرا فى أهم مدنها[1] ، التى كان يسكنها الأمير ، والتى شيدت فيها القصور والمعابد ، وأقيمت حولها الأسوار : وكان لكل ولاية شعار مميز، ومعبود خاص[2] ، ونظام نقد خاص فى بعض العصور . كما كان

---

(١) كانت تسمى تلك المدينة باللغة المصرية القديمة توت ، وكانت تقوم عادة عند ملتقى الطرق أو على النهر نفسه أو أحد فروعه ؛ وفيها كان يشيد بناء عظيم عال يشرف على ما حوله من دور ، كان يطلق عليه اسم (حت نتر) أى قصر الاله أو المعبد . ويقصد بالاله اله المقاطعة . وكان قصر الاله أى المعبد متسعاً ، يخصص بعض أجزائه لسكنى رجال الدين ، وبعضها الآخر يستعمل مخازن مقدسة وكان يقام فى كل حاضرة صرح آخر فسيح الأرجاء ، شامخ البنيان بالنسبة لما حوله من دور عامة الشعب ليكون مقراً للحاكم .

(٢) كان لكل مقاطعة شارة أو رمز خاص ، وكان هذا الرمز حيواناً أو شجرة أو شيئاً موضوعاً على حامل ، مثبت على الاشارة التى تدل على معنى كلمة مقاطعة ، وكان كل شكل من هذه الأشكال الرمزية يطلق اسمه على المقاطعة التي يسيطر عليها ، وهذه الرموز كانت فى الواقع تدل على آلهة المقاطعات . ولقد انحدرت هذه الرموز من القبائل التى كانت ترفعها كأنها أعلام خفاقة (سليم حسن بك — مصر الفرعونية . الجزء الأول ص١٧٩) .

لكل منها شجرتها المقدسة، وثعبانها المقدس، وأعيادها المحلية، ومحظوراتها ومحرماتها الخاصة بها(١) . وكانت جل هذه المقدسات من خلق بيئة المقاطعة المحلية أو من وحيها، وأقلها منقول، جاء مع القبائل من بيئاتها السابقة (٢) .

ولقد كانت الولايات فى بادىء الأمر صغيرة لا يعدو بعضها أسوار حاضرتها(٣)، ثم لم تلبث أن اتسعت رقعاتها، وساعدها على هذا الاتساع زيادة الفائض من الغلات، الذى أصبح عماد تجارتها . ولما كانت الغلة الفائضة والتى قامت مقام رءوس الأموال — كبيرة الحجم ثقيلة الوزن، ولم يستطع لذلك إرسالها إلى مدى أطول من عشرة أميال، من غير أن تبهظ تكاليف نقلها أثمانها، كانت المسافات بين الحاضرات، مركز ذلك الفائض، لاتزيد على تلك المسافة .

واقد لحظ الاستاذ پترى، عالم الآثار المشهور هذه الظاهرة (٤) فى مصر وفى أرض الجزيرة .

وظلت الولايات صغيرة حتى استبدلت العملة البرنزية بفائض الغلة، فكبرت المقاطعات وترامت أطرافها، ثم زاد اتساعها زيادة كبيرة وأصبحت دويلات حينما استبدلت بعملة البرونز عملة فضية، أخف حملا وأغلى ثمنا وأسهل لجبى الضرائب، ودفع مرتبات الجند والموظفين البعيدين عن الحاضرة (٥) .

---

(١) سليم حسن بك : مصر الفرعونية ص ١٧٣ .

(٢) يرى بعض المؤرخين أن الطوطميه انتشرت فى مصر فى ذلك العصر العتيق، ويذهبون الى أن تقديس المصريين لكثير من الحيوانات المحلية مثل الصقر والثور والعجل وابن آوى والقط والتمساح ومالك الحزين فى العصور التاريخية اللاحقه من مخلفاتها .

(٣) وكان يطلق على تلك المدن — City states أى ولايات المدن المستقلة .

(٤) ظاهرة المسافة بين كل حاضرتين .

(٥) يرى بعض علماء الجغرافية الاقتصادية أن التعامل بفائض الغلات لم يسمح الا بقيام ولايات صغيرة، وأنه لما استبدلت العملة البرونزية بفائض الغلات تسنى قيام دويلات صغيرة، ولما استبدل بها عمله فضيه أمكن قيام دول كبيرة منعزلة، ولما استبدلت العمله الذهبية بالعملة الفضيه قامت امبراطوريات متسعة الاكناف، ولما ابتدعت عملة الورق قامت العلاقات الدولية بين الامبراطوريات والدول وارتبطت برباط وثيق، وأصبحت أعضاء فى جسم واحد اذا تألم عضو تداعى له سائر الجسد .

ولقد تحرك أهل هذه الولايات المختلفة نحو الوحدة ، بفضل التشابه فى بيئة الزراعة والاتفاق فى المصالح ، واتصال الأجزاء بلا احتجاز ، والاعتماد على ماء نهر واحد ، فكللت حركتهم بالنجاح .

ولقد توحدت الولايات ، أول الأمر فى ثلاث ممالك . — واحدة فى مصر العليا ، تتخذ مدينة أمبوس [١] قصبة لها ، وقد عفت آثارها الآن ، وخلا مكانها ، فقامت مدينتا نقاده والبلاص الحاليتين على مقربة منه ، وكان يعبد فيها الإله ست ، أحد أبطال الأسطورة المصرية القديمة الجميلة ، التى تتلخص فى هبوط إله الخير من السماء [٢] (وهو أوزير وقد ألمعنا اليه فى الفصل السابق) ليعيش بين الناس يعلمهم الحكمة ، ويسن لهم القوانين ، ويسلك بهم الصراط المستقيم ، ويبتدع لهم طرق الزراعة وأساليبها وآلاتها ، ويرشدهم إلى روح الاجتماع وسر الحياة ، ويهذب عقولهم مستعينا فى ذلك بأشرف الفنون وأحلاها وهى



(ست)

(١) يظهر أنه كان شبه اتحاد قبلى قبل تكوين الممالك الثلاث ، فكانت مصر مقسمة أربعة أقسام متحدة لكل منها رمزه الخاص — ١ — أولها إقليم النسر ، ويمتد من حدود مصر الجنوبيه إلى بلدة قفط وحاضرته الكاب ٢ — والثانى إقليم الثعبان من قفط الى أسيوط ، وحاضرته كوم اشقاو ٣ — الثالث إقليم البوصه ، ويمتد من أسوط إلى حيث تبدأ الدلتا ، وحاضرته أهناس . ٤ — والرابع إقليم النحله ويشمل مصر السفلى كلها ، وحاضرته صالحجر . سليم بك ج ١ ص ١٧٤

(٢) يرى بعضهم أن قصة أوزير رمز بها للحياة التى تفنى لتعود إلى السرمدية ، وللنبت الذى يقطع فينبت ، وللانسان الذى يموت فيبعث حيا . ويعجب بعضهم من الشبه العظيم بين أسطورة أوزير وقصة عيسى بن مريم . ويسأل ولا يحير أحد له جواباً .

وكان فريق من كهنة مصر (يرمزون بأوزير إلى رطوبة النيل (حابى) أى إلى ري الارض ، ويرمزون بتيفون (ست) ورفقائه الذين تآمروا معه على قتل أوزير ، وكان عددهم اثنين وسبعين إلى أيام القيظ أو إلى الصحراء ومحلها ، أو إلى مدة تحاريق النيل حيث لا يكون (لم يكن) بمصر العليا عود أخضر وذلك أنهم شبهوا ماء النيل المخصب وجريانه إلى الشمال بجثة أوزير التى عامت فيه إلى الشمال وشبهوا أرض مصر الخصبة واشتياقها لماء النيل المنتج بزوجته ايزيس التى كانت تبحث عنه بعد موته ، وشبهوا هورس (حور) ابنه وحربه مع ست ونصرته عليه بالخصوبة التى تحدث من الأرض والنيل فانها تتغلب على القحولة وتطردها من أرض مصر فتنحصر فى البراري والقفار . وبالجملة فأوزير هو الخصوبة والحياة ، وايزيس الطبيعة المنتجة وست للموت أو العدم وحور الحياة بجددة) الأثر الجليل ص ٣٣

الموسيقى والشعر ، فيحبه الناس ويقدسونه فتشتعل نار الغيرة فى قلب أخيه ست ، فيحقد عليه ، ويحتال على قتله فيبعث حيا بعون زوجه إيزيس ، ويرفعه اله السماء مكانا عليا ، ويصبح قاضى قضاة يوم الحساب ، الذى يزن أعمال الناس ، ويحكم لهم أو عليهم بالقسطاس المستقيم ، تلك القصة الطريفة التى اقتبستها أمم كثيرة وقصوها مع تغيير



أوزير

ولقد بلغ من تقديس المصريين لذكرى أوزير الخير ، وا كبار صفاته ومآثره عليهم وغضبهم واشمئزاز نفوسهم عند ذكر اسم ست الشرير ، انهم كانوا — كما يزعم بعض الرواة — يتقربون إلى أوزير زلفى بحرقهم أشباه ست فى يوم معلوم » ولقد روى بلوتارك أنه سمع أن المصريين كانوا يقدمون قربانا من بنى آدم لأوزير ، فيأتون بالرجال فى يوم معلوم ويحرقونهم أحياء فى قرية الكاب ، ويذرون رمادهم فى الهواء ويسمونهم التيفونيين. وذكر ديودور الصقلى أنه سمع الرواية بعينها ، وزاد عليها قوله بشرط أن تكون وجوههم كلون وجه تيفون أى ست أعنى شقر الوجوه ، ولما كان هذا اللون نادرا عند المصريين ، فلا جرم ان هذا القربان كان من الأجانب ، لكن المؤرخ شميليون قد أنكر هذا القول كلية ودحضه مستشهدا بعدم وروده فى الآثار وفى تقاويم الأعياد والمواسم ، وقال إن المؤرخ هيرودوت أنحى باللائمة على اليونانيين الذين زعموا أن المصريين حاولوا أن يقدموا هرقل الجبار قربانا ، وأنه لم ينجه ألا قتله من التفوا حوله منهم وهرب به إلى أن قل ، وانى ارتاب كل الريبة فى صحة هذا الافتراء على المصريين الذين رفعوا التمدن أعلى مقام بين الأمم (ص ١٥٨ — ٥٩ الأثر الجليل) .





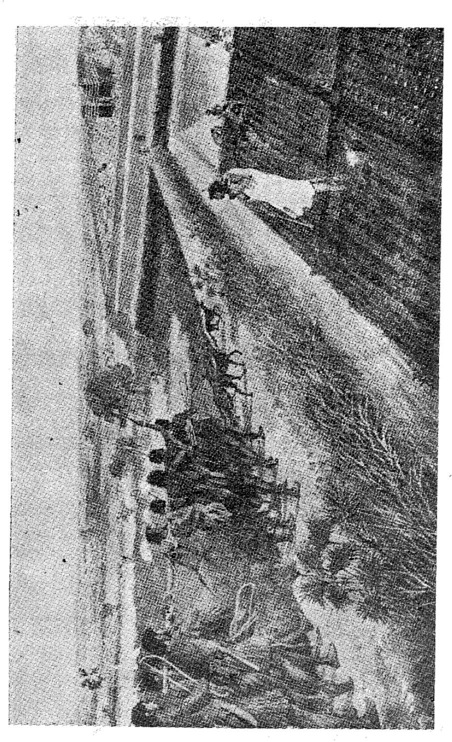
ايزيس

أسماء أبطالها ومسرحها . وهى من غير ريب منشا أقاصيص الإنسان المؤله أى الإله الذى يهبط من أعلى عليين ويتراءى للناس فى صورة البشر ، يأكل ويشرب وينام ويغفل مثلهم، ويألم كما يتألمون ، وتنتهى حياته على الأرض بقتله بعد تعــــذيبه ، فيرفع إلى السماء التى هبط منها .

ويغلب على الظن أن هذه الأسطورة رمزية ، ابتدعها خيال أحد كهنة مصر السفلى ، تشير إلى سبق مصر السفلى لمصر العليا فى رقى أهلها ، وتقدمهم فى العلوم والفنون والزراعة والصناعة وأساليب الحياة ، وأسباب الترف والثراء ، وحياة الاستقرار ، فدعا هذا كله أهل مصر العليا الأقوياء المخشوشنين ، يؤازرهم بدو الصحراء الأجلاف إلى غزو مدنها الوادعة ، فسلبوا ودمروا واتلفوا ، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها المترفين — وهذا هو الشر بعينه . وليس بغريب إن صح هذا أن يصبح أوزير إله الشمال فى الأصل إله الخير ، وست إله الجنوب فى بادىء الأمر إله الشر .

وقامت فى مصر السفلى مملكتان — إحداهما الى الشرق ، وقصبتها پر أوزير أى مدينة الإله أوزير ، وقد حرفت الى ابو صير الحالية القريبة من سمنود ، والأخرى إلى الغرب وقصبتها بحدت أو دمنهور ، أى بلدة حور التى فيها نشأت عبادة الإله حور أول مرة فى مصر آتية من الغرب ، ومنها انتشرت إلى كثير من أنحاء المصرين

وما لبثت مملكتا الشمال أن اندمجتا ، وصارتا مملكة واحدة ، قصبتها صا الحجر والتى لا تزال آثارها باقية بالقرب من مدينة كفر الزيات ، ولكن صا الحجر لم



احدى العواصم الأول لمصر السفلى

يقدر لها أن تعمر طويلا ، فانتقلت الحكومة إلى بحدت التى أصبحت قصبة المملكة المتحدة .




الاله حور

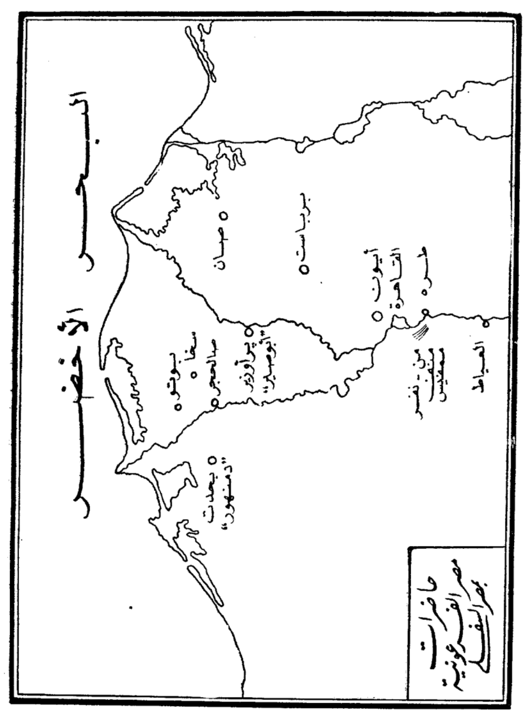
ولقد كان من أهم نتائج غلبة بحدت على مصر السفلى أن عمتها عبادة الإله المحبب حور . ولا نعرف على وجه التحقيق دواعى اندماج مملكتى الشمال ، فقد تكون نتيجة لضغط خارجى ، أو ظهور أمير طموح فى إحداهما ، تعدت رقعة أطماعه حدود مملكته ، فغزا جارته ، فرافقه التوفيق ، وحالفه النجاح .

ومازالت حكومة بحدت تقوى شوكتها ، ويشتد ساعدها حتى رأت من نفسها القدرة على اخضاع المملكة المنعزلة فى الجنوب ، فغزتها وأخضعتها .

وما إن تم النصر لبحدت أى مدينة حور على أهل الجنوب حتى علت مكانة الاله حور ، وفرضت عبادته على أهل الجنوب، الذين استبدلوها بعبادة

ست ، وثم منشأ أسطورة أوزير فى رأى بعض الثقاة .

وأوحت الحكمة للملك الأول (١) لمصر المتحدة ان يتخذ قصبة جديدة ، يحسن موقعها الجغرافى ، تتوسط المصرين، العليا والسفلى ، وتشرف عليهما ، وتسيطر على



(١) يرى الدكتور احمد بدوى أن ذلك الاتحاد الأول كان من وحى حور وأنه تم تحت إمرته ويظن أنه (الاتحاد) حدث حوالى عام ٤٢٤٠ ق . م أى منذ نحو مائتين وستة آلاف سنة .

ويري سليم حسن بك أن اتحاد حور سبقه اتحاد اوزير عنزتى وكان مقره پر أوزير (بوصير) (ص ١٤٨ جـ ١ مصر القديمه)

المسالك المفضية إليهما . فاتخذ آن أوعون [١] ، والتي أسماها العرب عين شمس عاصمة لها [٢] . وإن اسم الحاضرة الأولى لمصر المتحدة . أيون (ومعناه البرج) ليبين عن صلتها بعبادة الشمس . ولعل أول بناء شيد فيها معبد للشمس ، كان أظهر جزء فيه برج عال استخدمه الكهان لرصد الشمس . ومما يؤيد ذلك أن كبير كهان رع إله الشمس كان يلقب بالراصد الأعظم [٣] .



وكان لآن أسماء عدة منها پرع ، وهو اسمها المقدس ومعناه بيت الشمس ، وكان يطلق فى الأصل على قسم معابدها ، ثم أطلق عليها من أطلاق الجزء على الكل [٤] ، ومنها (بت ـ ن ـ قم) أى سماء مصر ، ومنها آرع وآن محيت أى آن الشمالية تمييزا لها عن آن الجنوبية (آرمنت)

وقد شيدت (آن) أى مدينة الشمس على ربوة طبيعية ، ومن تحتها خلجان ، تأتى إليها بمياه النيل ترع محفورة لهذا العرض ، تجرى فيها السفن المشحونة بكل صادر عنها أو وارد إليها .

واتخذت العاصمة الجديدة شارة لها تمثل المصرين ، وهى مكونة من قرص الشمس التى يرمزبه للإله (رع) تحف به الحية المقدسة (وازيت) عن اليمين ، وعن

---

(١) اسمها بالمصرية آن (an) (ولعلها أيون) وبالعبرية والقبطية أون (on) واسمها المقدس المتعارف بين العالم القديم (پرع) أى بيت الشمس . انتهى احمد كمال باشا ترويح النفس فى مدينة الشمس ص ٢٠

(٢) يذكر الاستاذ احمد نجيب مفتش وأمين عموم الآثار المصرية يوما ما فى كتابه — الأثر الجليل لقدماء وادى النيل عن عين شمس ما يأتى ـ أما عين شمس واسمها القديم (آن) فكانت مدينة قديمة جدا مقدسة عندم (قدماء المصريين) لانها كانت مرصدة على معبودهم رع أى الشمس

(٣) الدكتور احمد بدوى — فى موكب الشمس ج ١ ص ١٦٩

(٤) احمد كمال (باشا) ترويح النفس ص ٩ ـ ١٠

الشمال ، وهو باسط جناحين كجناحى الطائر ، يمثلان المصرين ولا تزال تلك الشارة باقية على الدهر ، ترى منقوشة أو مرسومة على كثير من المبانى الأثرية .

ولم يعوز كهنة عين شمس حيلة يربطون بها الإله (رع) إله (عون) المحلى بإله الملك الغالب حور ، أو بالملك حور نفسه فى رواية ، فأصبح (رع حور) او (رع) إله المصريين كافة . . . ابن فتاح (بتاح)أول آلهتهم وخليفته فى الحكم . ومعنى كلمة (رع) بالمصرية القديمة العمل والتدبير ، وسمى بذلك ، لأنه كان عليه تدبير الكون وإصلاح فساده ، وكان فى اعتقادهم أول إله صار ملكا على البشر كافة وعلى الآلهة جميعا بما فى ذلك أبوه (فتاح) .

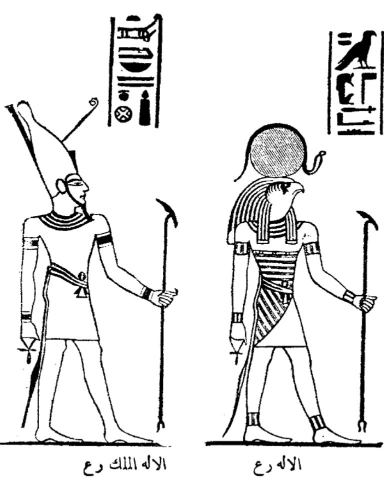
ومن أطرف الأساطير التى يرويها الكهنة عن الإله (رع) حين كان ملكا على مصر ، والتى وجدت منقوشة على جدران غرفة صغيرة داخل مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك ، تلك الأسطورة التى نجملها فيما يلى : —

لقد أتى على الإله (رع) حين من الدهر نزل فيه من سمائه إلى أرض مصر ، فاخصبت بفضل بركته تربتها ، وأمرعت حقولها ، وزكا زرعها من غير أن يكدح الفلاحون أو ينصبون ، كما كانوا من قبل هذا العصر ومن بعده يفعلون ، فعاشوا فى بحبوحة من العز ورغد من العيش . وضرب المصريون بذلك العصر السعيد المثل ، وقرن به كل عجيب فى بابه أو حسن فى نوعه ، فإن صادفهم شىء من ذلك قالوا عنه إنهم لم يروا مثله منذ زمن الإله (رع) . [1]

واتخذ الإله (رع) الركن القديم من معبد (أيون) مقرا له ومقاما ، وكان يطلق عليه (حايت ساور) أى قصر الأمير ، وكان يصحبه آلهة وإلاهات ، ويقوم بخدمتهم طائفة من البشر — ينظفون القصر ، ويرتبون أثاثه ، ويطهون الطعام ، ويغسلون الملابس ، ويتسلمون القرابين ، وكان للمعبد كهنة كثيرون ، ولهم كاهن أعظم وكاهنة عظمى ، وكان يخرج (رع) كل يوم بكرة يحف به صحابته ، ويركبون السفينة فتسير باسمه مجريها بين تهليل الناس وتكبيرهم ، فيطوف بالعالم فى اثنتى

(١) احمد باشا كمال — ترويح النفس

عشرة ساعة ، ويقيم فى كل من الإثنى عشر قسما ساعة ، يصرف فى أثنائها شئونه ، ويحكم بين سكانه بالقسطاس المستقيم ، ويحل مشاكلهم المستعصية على حكمائهم وأصحاب الرأى فيهم ، ثم يرجع إلى المدينة . فإذا ما قر قراره فيها وهب وأعطى ، وأقطع المستحقين إقطاعات من أرضه الواسعة ، وأمد الأسر المحتاجة بما يحتاجون من لباس وطعام ، وخفف آلام بعض الناس وشفى أمراض بعضهم ، واطفى قضاء بعضهم الآخر .



الاله الملك رع — الاله رع

وكان (رع) جل جلاله ، يعلم الناس الفوائد الواقية من لسع الهوام السامة والحامية من اغتيال الوحوش الضارية ، والطيور الكاسرة ، ويلقنهم العزائم السحرية ، ليطردوا بها الشياطين الذين يلمون ببعضهم ويرشدهم إلى طرق كثيرة لعلاج الأدواء التى تصيبهم .

علمهم ـ جل جلاله ـ ذلك العلم الغزير ، ولم يبخل عليهم بما ينفعهم ، ولكنه كتم عنهم اسمه الذى سمى به يوم ولادته لئلا يسحر به ، أو يستخدمه من يعرفه فى الإضرار بالناس .

... وقد احتالت عليه إيزيس حتى انتزعته منه فى قصة طريفة تجدها فى كتاب تر ويح النفس .

ولبث جلالة الإله بين الناس حتى اعتراه الكبر ، وأصبحت عظام جلالته — دام ممتعا بالصحة والعافية — كالفضة ، ولحمه كالذهب ، وشعره كاللازورد الخالص ، فطمع فيه عباده الجاحدون ، وسولت لهم أنفسهم أن يتآمروا عليه ، لما رأوه طاعنا فى السن . (كذا) ففطن جلالته لنيات الخلق واكتنه سرائرهم ، فأمر باستدعاء الآلهة الذين كانوا يصحبونه فى السماء خفية ، حتى لا يراهم البشر الثائرون ، فلما مثلوا بين يدى جلالته قالوا له : —

« تكلم حتى نسمع فنطيع » فقال (رع) مخاطبا الإله (نن) — أنت يا أكبر الآلهة سنا (١) يا من منحتنى الوجود وانتم يا أجدادى (٢) المقدسين ، لقد رايتم كيف أن هؤلاء الخلق الذين نبتوا من عينى (٣) قد ثاروا على . والآن أريد أن استرشد برأيكم فى أمرهم . لأنى لا أود ان أميتهم قبل أن استمع لنصحكم فى هذا الأمر .

. . . فأشار الآلهة على جلالته بأن يأذن لعينه (أى الإلهة حاتحور) أن تنزل إلى الأرض حتى تفتك بهؤلاء الذين اقترفوا إثما ضده (وهكذا قضى الأمر) وعادت الإلهة (حاتحور) بعد أن قتلت خلقا كثيرا فى الصحراء ، فأحسن جلالته استقبالها . . . وأرادت (حاتحور) أن تستمر فى الفتك بالعصاة فى اليوم التالى ، ولكن عوامل الشفقة حركت قلب (رع) نحو العباد فأخذ يفكر فى كيفية إيقاف هذه المذبحة البشرية ، فأرسل على جناح النعامة رسلا إلى مدينة الفيلة فى طلب نوع خاص من الفاكهة — ولما جيء بها ، أمر أن تعصر فى (عون) (مدينة الشمس) . . . ويصنع من عصيرها جعة ، فصدع بالأمر ، وملئت بها سبعة آلاف أبريق .

وكان لون هذه الجعة فى الظاهر يشبه دم الإنسان . وقد أعد هذا الشراب

(١) هذا رأى ، والرأي الغالب أن (فتاح) هو أقدم الآلهة ووالد الاله (رع) .

(٢) وهذا يخالف الرأي السائد وهو أن (رع) بن (فتاح) وفتاح أول الآلهة جميعا .

(٣) هذا قول صحيح لم يقصده قائله ، فبنوا آدم من أديم الارض ، والارض قطعة من الشمس والشمس إحدى عينى (رع) أو هى (رع) نفسه .

المسكر ليكون وسيلة لخلاص بنى الإنسان . وقبل مطلع الفجر أمر جلالته بإحضار تلك الأباريق إلى المكان الذى كانت (حاتحور) قداختارته لأن تذبح فيه من بقى من الخلق من مذبحة الأمس، وهنالك أريقت الجعة ، فغمرت الحقول حمراء كالدم القانى . . .


الالهة حاتحور

ولما جاءت (حاتحور) متعطشة إلى إتمام ما أمرت به ، وجدت الجعة كبحيرة من الزجاج الأحمر الصافى يعكس محياها صورة جميلة ، فشربت منها حتى ارتوت ، وعادت إلى بيتها ثملة لا تميز بين البشر وغير البشر، وبذلك سلم العباد من الموت بحيلة من إله الشمس .

وخشى (رع) أن تذكر (حاتحور) إساءة الناس متى أفاقت ، ففرض على الناس أن يقربوا فى عيدها السنوى من جرار الجعة عدد قسيسات معبد (رع) زلفى لهـــا ، وإرضاء لشهوتها ، وعقابا لمن ظلموا أنفسهم من البشر ، وبذلك استقام الحال ، وساد العالم السلام وعم السكون الوئام . ولـكن (رع) رأى بواسع علمه أن هذا الحال لاتدوم طويلا ، وأن الناس لابد عائدين إلى التشغيب والتمرد عليه ، فأشفقت رحمته إنهم عادوا — فأتمروا به ،فسلط عليهم ،أن يفنوا ، وقدخلقوا الحكمة فقال — جل جلاله — لملائـكته الذين كانوا حافين حول عرشه : لقد سئمت نفسى العيش بين خلقى ، وكره قلبى الإقامة بينهم، ولـكنى مع ذلك لا أود أن أقضى بموتهم، فتخرب بفنائهم الأرض . وقدأردت أن أعرج إلى السماء . .

وأمر (شو) ابن (رع) ابنته (نويت) أن تضع جدها على ظهرها ،فصدعت

بما أمرت ، وتمثلت بقرة سوية ، ووضعت جلالة جدها على ظهرها ، وهمت أن تصعد به ، لولا أن جاء العباد الذين سلموا من القتل ليشكروا (رع) على إنجائهم ولما علموا بمشيئه ، حاولوا أن يردوه عنها ، فأبى وأصر على تركهم والرحيل عنهم فأتمروا وأجمعوا أمرهم على قتال عباده الخاطئين بين يديه ، ليكفروا عن سيئات البشر ، وليغفر لهم ذنوبهم ولذلك توسلوا إليه أن يلبث معهم إلى الغد ، فعاد جلالته إلى قصره ترضية لهم .

وبات (رع) ليلته فى قصره، وخرج الناس فى الصباح متنكبين أقواسهم، حاملين سهامهم ، وشرعوا يرمون الأعداء بالسهام فقتلوا منهم وجرحوا ، فرضى عنهم (رع) وقال لهم : الآن قد عفوت عنكم وغفرت لكم ذنوبكم لان فى القربان رحمة ومغفرة للمذنبين ، ومنذ فارق (رع) البشر فراقا أبديا ، صار ذبح الإنسان قربانا واجبا بين الناس (١)

ولكن (رع) على الرغم من رضائه عنهم ، كره تضحية الإنسان . . . وحرم قتل الناس بعضهم بعضا إلا بالحق ، واستبدل ضحية الحيوان بضحية الإنسان ، (٢) وشرع أن تكون الضحايا من ثيران وغزلان وطيور . وبعد أن سن لهم تلك السنة الحميدة امتطى صهوة البقرة (٣) فنهضت به واستوت على سوقها الأربع التى استطالت كلما سمت ، حتى أصبح بطنها كعرش على الأرض تطلع منه النجوم .

ومن الغريب أن هذه الأسطورة رغم اضطرابها ، وغموض فكرتها ومغزاها . والنقص الظاهر فى سبك حواشيها ، قد قبستها بعض الديانات الراقية ، ولم تغير فيها إلا قليلا . .

---

(١) وقد ذكر فى الآثار أن الأرقاء والأسرى كانوا يذبحون على مقابر الأمراء والأغنياء فى بعض العصور .

(٢) راع وجه الشبه بين هذا الحادث ورؤيا ابراهيم :

(٣) يرى بعض العلماء أن ذكر البقرة فى هذه الأسطورة رمز للخصب . وتستبدل البقرة فى بعض الروايات بامرأة تنحنى على الأرض معتمدة على يديها ورجليها .

وما ان أصبحت (عون) مقعد التاج حتى نشطت فيها العمارة ، فشيد فيها قصر عظيم لسيد الوادي وقصور دونه في العظمة والرواء لأهل بيته وأهله الأقربين ، ودور كبيرة للنبلاء والقواد والأغنياء ، وبنيت دور للمصالح المختلفة للحكومة المتحدة ، ونشأت ربوع مستقلة للجند ، وربوع للكهنة — وكانت أكثر الربوع اتساعا وأكثرها سكانا ، ولهذا كان يطلق على مدينة الشمس في بعض العصور السالفة (مدينة الكهنة) (١)

وما لبثت أن أمها التجار الوطنيون والأجانب ، وزخرت ميناؤها بالسفن مشحونة بصدرات الأقطار الأجنبية ، ثم لا تلبث ان تغادرها ملأى بصدرات مصر ، وبنيت فيها المخازن التجارية . وجاءها الصناع الماهرون وأقاموا فيها دورا للصناعة . وسعى إليها العلماء ، فأصبحت مهد العلم ، ومهبط الحكمة وكعبة مقدسة يعبد فيها طاووس الآلهة (رع) الذي انتشرت عبادته حتى شملت المصرين كما أسلفنا ومحت آيته آيات الآلهة الآخرين ، حتى أقر له المصريون الأقدمون بالوحدانية ، وشبهوا — ظهوره واختفاءه أي شروق الشمس وغروبها (والشمس رمزه أو هي هو) بحياتهم ومماتهم ، ثم لم يلبثوا أن سموا الشمس مظهره أسماء كثيرة — فسموا جسمها (رع) ، وقرصها (آتون) (٢) . وأسموها قبل الشروق (أنومو) ، و (رع حور) أو (خبر رع) وقت الغروب (٣) إلى آخر أسمائها ثم لم يلبثوا أن جردوا من هذه الأسماء آلهة مختلفة أو (أقانيم) لإله واحد . . .

وكانوا يعتقدون أن إله الشمس يستقل زورقا من ذهب ، يسبح به في الجو صعدا الى كبد السماء ، حتى إذا ما بلغه هبط به إلى الافق الغربي حيث يغيب وراءه ، ويسير جميع الليل في ظلام دامس ، تحف به المخاوف والأهوال ، حتى إذا ما تنفس الصبح طلع من وراء الأفق الشرقي .

(١) احمد كمال باشا : ترويح النفس في مدينة الشمس ص ٢٦

(٢) راجع ثورة أخناتون الدينية ، والتي كان أساسها استبدال عبادة (آتون) أي قرص الشمس وهو من أقانيم الاله (رع) ، بعبادة الاله (آمون) .

(٣) الاستاذ اشتيندرف الألماني : ديانة قدماء المصريين ، تعريب سليم حسن بك ص ٣٣ .

وكانوا يلحظون اصفرار الشمس عند الأصيل، فيلتمسون لهذا الاصفرار تعليلا يفهمه العامة، ولعلهم لم يصلوا إلى معرفة نظرية الطيف وانكسار الضوء، على الرغم من رسوخ قدمهم في العلم، ووضعهم أسس أكثر العلوم التي تنفع الناس.

ولعلهم كشفوها، ولكنهم خاطبوا الناس على قدر عقولهم. قالوا في تفسيرهم اصفرار الشمس: إن إله الشمس حين يقترب بزورقه من الأفق الغربي، تتصدى له حية هائلة، لها فحيح تنخلع له القلوب، وتلتاع له النفوس، وترعد له الفرائص، تحاول أن تناله بشرها وأذاها، فيتملكه الخوف ويغشاه الفزع وتنهض الرعدة في مفاصله، ويشيع الاصفرار في وجهه، وقبل أن تصيبه، يتصدى لها حوت عظيم، فيحول بينها وبين الزورق وصاحبه، يؤازره في ذلك حية صغيرة على جبين الإله، يخرج من فيها لهب ذو ثلاث شعب، يحرق كل من رام الاقتراب من رب العرش العظيم.

ولعل هذا سبب اتخاذ الحية شارة تعلو جبين الفراعنة، أبناء رع إله الشمس[1] ورب الزورق السباح.

ولقد مثل الكهنة المصريون لإله الشمس صورا عدة، فتخيلوه عند الشروق طفلا جميلا، مفتر الثنايا، وضاح الجبين، موفور الصحة، ثم ما لبث خيالهم أن استكثر على ذلك الطفل الجميل وعوده مازال لدنا، وإهابه مازال غضا، أن يجري به الزورق آلاف ألف الفراسخ، ليصل إلى مستقره المقدر له، فاستبدلوا به جعلا يدب نحو ذلك المستقر، دائباً غير مفتر، يدفع أمامه كرة كدأبه في الأرض[2]

---

(١) كان كهنة المصريين وعلماؤهم يتخيلون السماء على شكل أنثى معتمدة على رجليها ويديها، فلا بدع أن «استولدوها طفلا جعلوه رمزا للشمس اذا ماطلعت عليهم من شرق الدنيا» أي في بدء حياتها اليومية (ص٤ في موكب الشمس للدكتور بدوي.)

(٢) لحظ المصريون الجعل يسير في الأرض وهو يدفع بين يديه بيضته، ولا يزال يدفعها حتى تفقس، وما يكاد فرخها يعتمد على رجليه حتى يقفو أثر أبيه، فيدفع بيضته بين يديه، ولا يزال يدفعها حتى يخرج فرخها وهكذا. . . . فرمزوا به «لاستمرار خلق الله الذي لاينتهي، وجعلوا منها صورة لموكب الشمس، وقد بدأت سيرتها في السماء انتطور في طريقها وهي تجري الى مستقرها الذي قدره العزيز العليم» في موكب الشمس ص ٤

ولكنهم حين تبينوا فى الجعل (الذى رأوا فيه الدأب مجسما) بطئا بقصر به عن بلوغ الغاية ، استبدلوا به عجلا [١] ذا قوة متينا ، ثم استبدلوا بالعجل صقرا (٢) ثم بالصقر كبشا (٣) ، ثم بالكبش إنسانا كاملا ، أفرغوا عليه ملابس الفراعنة ، وزينوه بزينتهم ، وألبسوه تاجهم [٤] ، ولعل هذه الصور المختلفة رمز لبعض صفات إله الشمس وقواه المختلفة ، فهموها وأرادوا أن يبسطوها للعامة فجسدوها ، فرمزوا بالطفل لصفة الأولية ، ورمزوا بالجعل للدأب والدوام والاستمرار ، وبالعجل للقوة والمتانة والصبر والسلام ، وبالصقر للعلو والتفرد والسيطرة والبصر بالأمور، إلى آخر ما رمزوا ، أو لعلهم حين علموا صفات إلههم ، ورأوها تند عن أفهام العامة ، أرادوا أن يقربوها لفهمهم ، فبحثوا عنها فى الطير والدواب ولما وجدوها فى بعضها دون بعضها الآخر ، رمزوا لها بالحيوان الذى وجدت فيه ، ثم أرادوا أن يفهموا الناس أن هذه الحيوانات ليست كالبهم والطير التى يعرفونها ، فصوروها فى صورة انسان ، مع الاحتفاظ برأس الطير أو الحيوان المختار .



الاله (رع) فى صورة الجعل

(١) شبه الكهنة السماء التى تنزل الغيث والرحمة على العباد بأم رءوم تخيلوها فى صورة امرأة تارة ، وفى صورة بقرة حلوب تارة أخرى ، وهم حين يتخيلونها فى بنى البشر يستولدونها الطفل الجميل الذى ألمعنا إليه ، وحين يتخيلونها بقره يستولدونها عجلا جسدا من ذهب له خوار .

(٢) رأوا الصقر دون بقية الطير يرتفع فى السماء حتى يغيب عن أبصارهم، فتخيلوا فيه ولدا للسماء وقديماً تخيلوا الشمس ولدا لها ، فرمزوا بالصقر لها .

(٣) لحظوا فى الكبش القوة والخصب والقدرة الفائقة على الانتاج الجنسى .

(٤) اسماه الكهنة أتوم أى الانسان الكامل ، وحين أرادوا تفسير تكاثر الناس جعلوا أتوم يحن الي صاحبه تؤنس وحشته ، ويستعين بها على تعمير الأرض فاتخذها من راحته ، فجاءت على صورة امرأة ، فجاء البشر من بين صلبه وترائبها . وما أشبه قصة أتوم وقرينته ، التى خلقها من راحته ، بقصة آدم الذى دعا ربه أن يهبه زوجاً ، فخلقها له من أحد أضلاعه . وما أشبه اسميهما : آتوم وآدم!

وأقام عباد رع المخلصون له فى عين شمس معبدا عظيما ، سارت بذكره السيارات والركبان . وصفه استرابون (بعد أن أدخل عليه الفراعنة المتعاقبون من توسيعات وتحسينات) بأنه أجمل الآثار القديمة ، لم يستثن منها واحدة فى مصر ، وغير مصر ؛ وأنه كان محاطا بسور يدخل منه بدهليز مبلط بالحجر عرضه نحو ١٠٠ قدم ، وطوله ثلاثة أمثال عرضه [١] . . . وشيدت بجواره كلية دينية نسل إليها الطلاب من كل فج عميق [٢] ، وما زال عددهم يزيد على مر العصور حتى بلغ اثنى عشر الف (٣) فى زمن رمسيس الثالث . ولم يلحق خريجيها فى العلم والمعرفة ، خريجو كليات ممفيس (من — نفر) وطيبة ، وصالحجر .

ولقد أطرى هيرودوت أول مؤرخ رحال ، أطرى علم علماء مدينة الشمس ، وأثنى على غزارة معرفة حكمائها [٤] ، ووصفهم بأنهم أرقى فئة فى مصر ، وذكر أن علماء الأغريق معجبون بأبحاثهم فى علم الفلك ، وعلم الهندسه والعلوم الأخرى ، وذلك على الرغم من غموض أساليبهم وطرقهم فى البحث .

---

(١) احمد بك كمال — ترويح النفس . . ص ٢٦

(٢) يقول احمد بك نجيب فى كتابه لأثر الجليل .. ص ٥٢ (وكان بها (عان) كلية جامعة ، ولشهرتها سعى إليها كل من سولون مشرع اليونان ، وافلاطون الحكيم ، وفيثاغورث الرياضى المشهور لتلقي العلوم بها) .

(٣) ويذكر احمد بك نجيب ، فى كتابه المذكور ، أن الاثنى عشر ألف طالب ضمتهم كلية واحدة ، أو على حد تعبيره هيكل واحد من هياكل المدينة ، فاذا كان عدد طلاب جميع كلياتها وهياكلها ياترى ؟

(٤) لقد ذكر الأستاذ استيندرف الألمانى ، فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) ترجمة سليم حسن بك أنه (لا يكاد يوجد متن دينى إلا وللكهنة عون أثر فيه ، ولا نكون مغالين إذا قررنا أن الجزء الأوفر من أدبيات القوم الدينية أنشئت أو على الاقل نشرت فى هذه المدينة ، ولقد بقى النشاط الأدبى لهؤلاء الكهنة إلى أبان العهد اليونانى ، وانتشرت شهرتهم ، وذاع صيتهم فى بلاد اليونان نفسها ص ٣٧ من الكتاب المذكور .

وقل ماسبرو لقد كانت عان منبع الديانة المصرية ، ومركزا للمدرسة التى أظهرت علم اللاهوت والفلسفة في أقطار الدنيا .

واتسعت رقعة أيون وامتد عمرانها بما شيد فيها من دور لطلاب كلياتها ، الذين يعدون بعشرات الآلاف كما قدمنا ، والذين كانوا من أجناس متباينة وملل مختلفة .

ولقد زار هيرودوت الدور التي كان يقطنها سولون مشرع الإغريق الأكبر، وأفلاطون فيلسوفهم العظيم ، وفيتاغورس رياضيهم الأول ، وغيرهم من علمائهم وفلاسفتهم ، حين كانوا يطلبون العلم فى مدينة الشمس .

وقال المؤرخ الكبير ماسبرو « إن آن . . . هي التي اضطلعت بالقسط الأوفر بين المدن المصرية فى ابتداع العلوم وأسس التمدن الأخرى ونشرها ، وان الصلوات والقصائد التي نظمت فى مدح الآلهة ، وصارت فيما بعد أصولا للكتب المقدسة عند المصريين الأقدمين كان انشاؤها فى مدينة الشمس (آن)

وقال أيضا .. ومنها (أى من آن) انبثق نور التمدن فاستنار به سكان الأراضى المخصبة ، واهتدى به أهل الأباطح ، وأسس فيها الكهنة مدارس حوت جميع أصول الديانات المختلفة . . . الخ

ولقد برع بعض علماء هذه المدينة فى علم الطب وعلم الصيدلة ، وألفوا فيها . ولقد ذكر أحمد بك كمال « باشا » فى كتابه ترويح النفس ما يأتى = . (وكان فى مدينة الشمس صيدليون ، وان أحدهم ركب دهانا نافعا لالتهاب كيس العين الدمعى ، وهذا تعريبه = .

« نسخة لدهان العين حضرها الكاهن الصيدلى (خوى) وهاهى ذى مقاديرها المتساوية = .

كحل	١	نطرون بحيرى	١	صعيدى	١	جزاره	١
سلقون	١	درور خشبي	١	عسل طبيعى	١		

ولقد كان بعض صيدليي المدينة يسمون الأدوية باسمائهم .

ولقد كان معبد الشمس فى عون أعظم مسرح لأساطير المصريين الأولين التى ذكرنا ملخص بعضها فى الفصل السابق ، وفيه كما فى تلك الأساطير كانت تجتمع

جمهرة الآلهة فى عهد الحروب الشعواء التى وقعت بين حور بن أوزير الخير وعمه ست العملاق الشرير (١) ، للقصاص لأبيه وفى بهوه ضمدت جروح حور وست والتى أصابت كليهما فى ذلك العراك الدامى الذى انتهى بقتل ست إله الشر .

ويغلب على الظن أن معابد الشمس(٢) كانت على نسق واحد ، وكانت أشكالها ، كما تبيناه من آثار معبد الشمس ببنى غراب ، تختلف عن أشكال المعابد الأخرى . فكان يختار للمعبد عادة بقعة عالية من الأرض ، فيبنى عليها ، ويشمل كما فى الرسم : فناء متسعا غير مسقوف ، يشيد فى وسطه بناء ضخم عظيم الارتفاع ، يشبه شكله العام شكل المسلة (٢) وكان يرتكز ذلك البناء على قاعدة متينة ، وكان ينصب أمامه مذبح ضخم من المرمر . وكان للمعبد مخازن تحيط بجدران فنائه ، مرصوصة بعضها بجوار بعض .

وكانت معابد الشمس تمتاز بخلوها من الأبهاء المظلمة ، ومن تماثيل الآلهة والملوك ، وليس ذلك ببدع ، فان الشمس الوضاءة كانت تشرق كل صباح على عبادها فتملاء الدنيا سنا وسناء ، وحرارة وضياء ، فيبصرونها بينة واضحة باهرة ، فلم يكونوا لذلك فى حاجة إلى التماس مظهر لأكبر ظاهرة كونية لديهم ولدى سكان الارض كافة .

ولقد أصاب عبادة الشمس ضعف واضمحل نفوذ كهنتها فى فجر الدولة القديمة

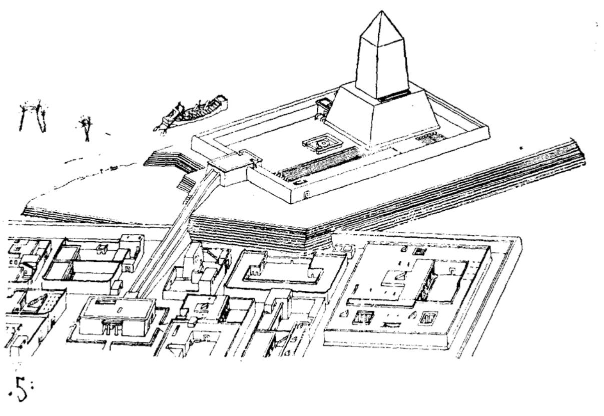
---

(١) يرى بعضهم أن حروب أوزير وحور وست حدثت بعض وقائعها فى مدينتى (اح) و(خراو) اللتين أسستا بجوار مدينة الشمس ، لا فى مدينة الشمس نفسها انظر ترويح النفس ص ١٠

(٢) لقد كانت المعابد فى مدينة الشمس كثيرة العدد ، ولقد ذكر أحمد كمال (باشا) فى كتابه ترويح النفس منها ٣١ معبداً ، ويظهر أن تلك المعابد كانت مجتمعه فى قسم من المدينة كان يطلق عليه اسم بيرع ، الذى أطلق على المدينة كلها كما تقدم ذكره .

(٣) يقول الأستاذ استيندرف الألماني ، فى كتابه ديانة قدماء المصريين تعريب سليم حسن بك فى أصل هذا البناء العالي ما يأتى : وكان يقيم له (رع) الاهلون داخل المعبد عمودا من الحجر يصلون عنده ليوصل العبادة إلى الاله الأعظم — ولعله كان يقام فى الساحة المكشوفة من المعبد وعلى مر الأيام ، أخذ هذا العمود شكلا منتظما متناسبا ، وعرف بالمسلة ص ٣٢

وضحاها ، وبخاصة فى عصر بناة الأهرام الأولين ، ولكنها لم تلبث ان استجمعت ، وعاودتها قوتها ، وعلا نفوذ كهنتها كرة أخرى فى أواخر عهد الأسرة الرابعة ، نستبين ذلك من ظهور اسم رع فى أسماء فراعينها الذين خلفوا خوفو العظيم ، وقد بلغت أوج مجدها فى عصر الأسرة الخامسة التى كان فراعنتها ، فى قول، من نسل احد



معبد الشمس

رؤساء كهنة عون ، والذين ادعى اولئك الكهنة لهم بنوة إله الشمس رع بنوة حقيقية ، وليست بنوة رمزية كالتى يدعيها فراعنة مصر جميعا .

يزعم اولئك الكهنة ان الاله الأعظم رع تراءى لأم — رأس تلك الأسرة — فحملت به وباخوته ، ثلاثة توائم ، وبشرها بانه سوف يؤتيهم الحكمة والملك ، ولما جاءها المخاض ارسل اليها الالهة إيزيس والإله خنوم وبصحبتهما ثلاث إلاهات أخريات لتيسير الوضع وليباركن الملوك الثلاثة ، فذهبن إلى بيتها ، وقمن بما أمرن خير قيام ، وسمين الملوك بأسمائهم وبشرن أهل بيتهم بما بشر به رع ، وقبل أن يغادرن البيت ، أخفين ثلاث تيجان فى سلة من سلال البيت .

وفى عهد أولئك الفراعنة ، أبناء رع، بنيت معابد للشمس فى غير مدينة الشمس ، وأمها الناس ليعبدوا إلهها ، ولا غرو فالناس على دين ملوكهم .

ولما جاءت الأسرة الحادية عشرة فقد الإله رع بعض مكانته ، حتى إذا جاء الهكسوس، ثم طردوا واصبحت طيبة سيدة البلاد فى عهد الامبراطورية المصرية



الالهه إزيس وصاحباتها
يخفين التاج فى السلة

تزحزح من مقعده ليتبوأه آمون إله طيبة المحلى ، بل ونزل له عن اسمه ، فأصبح آمون امون رع ولكن اخناتون اعاد لرع عزه بعد ثورة دينية فريدة كان لها اثر عظيم فى حياة مصر الدينية والأدبية والفنية والاجتماعية . . .

وكرت الغداة ، ومرت العشى فلم يبقيا من دور المدينة المقدسة وقصورها ، ومعاهدها

العلمية ، ومعابدها ومسلاتها وتماثيلها إلا مسلةواحدة [١] ، صمدت لأحداث الدهر بعد أن عدت على توأمتها العوادى ، فهدمتها من جذرها ، وقطعت أوصالها فى سنة ١١٦٠ م [٢] وسفت عليها السوافى ، فعفت على آثارها .

ولقد أقام هاتين المسلتين سنوسرت الأول (١٩٧٠ ق م — ١٩٣٤ ق م) أمام معبد الشمس ليقترب إلى رع ، إله الشمس زلفى . وكان أبوه امنمحعت الأول (١٩٩٥ ق م — ١٩٦٥ ق م) قد جدد بناء المعبد من قبل ، أو شيده على انقاض معبد سابق ، قوضته الاحداث الجسام ، التى سادت مصر فى أول عصر من عصور الظلام الطويلة ، الذى جثم على صدر مصر فى الفترة بين الأسرة السادسة (٢٦٢٥ ق م — ٢٤٧٥ ق م) والأسرة الحادية عشرة (٢١٦٠ ق م — ٢٠٠٠ ق م) .

وعندما شرع امنمحعت الأول فى تشييد المعبد، ضرع الى ربه، وهو رب المعبد رع ، ان يحفظه من عاديات الدهر، وتقلبات الأيام ، وتوسل إليه أن ما يبنيه لا يهدمه الهادمون ، بل يخلد ويدوم . ولكن الله لم يستجب له لأن الصرح العظيم الذى جمع وحشد ، وأعد ، وكان يعتقد أنه باق على الدهر ، حال أطلالا بالية ، ثم لم يلبث أن أصبح أثرا بعد عين

وجاء بعد امنمحت الأول ابنه سنوسرت الأول فزاد فى المعبد ، كما الحنا . زيادة كبيرة ، غيرت من شكله ونظامه ، بذل فيها جهد الجبابرة ، حتى اوشكت أن تجعل منه معبدا ، جديدا ، ولما انتهى منها أقام حفلا عظيما منقطع القرين ذاع صيته فى الآفاق ، وتناقل ذكره السفار وبقى مخلدا بعد حكمه (لأنهم أى المصريين القدماء) كانوا فى آخر أيام الأسرة الثامنة عشرة يستنسخون فى طيبة حكاية الاحتفال بذلك العيد) . . . ترويح النفس ص ٢٦

---

(١) طولها ٢٠ مترا و ٣٧ سنتيا .

(٢) قال محمد ابراهيم الجزري فى تاريخه (وفى رابع شهر رمضان سنة ٦٥٦ ه وقعت احدى مسلتي فرعون التي بأرض المطرية ، فوجدوا داخلها مائتى قنطار من نحاس وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار) ولعله يقصد صيغ مما وجد بها من صفائح ذهبية ذلك المبلغ وعسى أن تكون نهايتها الهرمية قد صنعت من نحاس مصفح بالذهب . راجع كتاب الأثر الجليل ص ٥٢ — ٥٣ .

ومن الفراعنة العظام الذين شيدوا فى مدينة الشمس تحوتمس الثالث الفاتح العظيم ، فقد وجدت بعض الأسانيد التى تدل على أنه (اشتغل بتوسيع أحد معابد مدينة الشمس (١))

وهذا السند يدل دلالة قاطعة على أنه كان فى عهد ذلك الملك العظيم فى مدينة الشمس معابد للشمس غير معبدها العظيم الذى وصفناه ووصفه الرحالون والمؤرخون.

ولا نعلم علم اليقين مَنْ من البشر الظالم عدا على تلك المعابد، وما حولها من قصور ودور وخربها، ولا تاريخ التخريب بدءه ومراحله .(٢)

لقد كانت قائمة فى عهد الهكسوس، أولئك الأخلاط من النـــاس ، الذين غزوا

الملك الفاتح تحوتمس الثالث

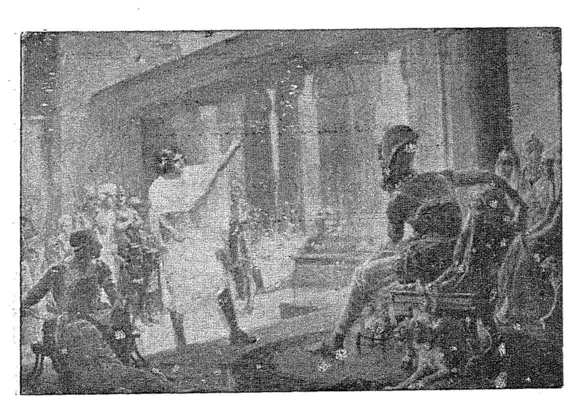
مصر ، منتهزين فرصة انقسامها وضعفها ، ووصموا بالعبث وسفك الدماء ، ونسب

---

(١) أحمد باشا كمال : ترويح النفس ص ٢٨

(٢) قال استرابون فى هذا الشأن ما يأتى : ان ابتداء خراب هذه المدينة (عون) كان على يد قمبيز ملك العجم ، أما الآن فلا يرى بها غير سور المعبد والمسلة السالفة الذكر وسبب خرابها بهذه الحالة هو عين سبب خراب مدينة (ابو) ومدينة (دندرة) و (العرابة المدفونة) وغيرها وهو دخول الديانة المسيحية التي هدمت الآثار الجليلة . أما الاطـلال التى حول المسلة فهي آثار المدينة القبطية لا آثار عين شمس الحقيقية كذا ص ٥٣ الأثر الجليل .

اليهم الخراب والدمار . وآية ذلك أن أحد ملوكهم (ويغلب أن يكون الريان بن الوليد) زوج يوسف الصديق صفية وخليله ، ومفسر رؤياه من ابنة بوطيفر أحد كهنة معبد الشمس ، وقيل كاهنه الأكبر . ولقد كان ذلك المعبد قائما بعد أن طردوا من مصر ، أي في عصر الدولة الحديثة أو الأمبراطورية المصرية الأولى .



يوسف الصديق يفسر الرؤيا لفرعون

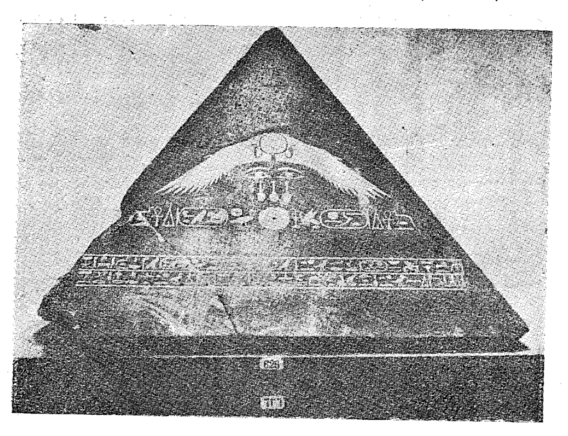
فلقد جاء أن في عهد ملوكها الصيد الفاتحين ، وبخاصة في عهد رمسيس الثالث زادت ثروة قسيسي معبد الشمس ، واتسعت رقعات أملاكهم إلى حد لم يعهدوه من قبل . ولقد كانت ملحقات المعبد من بيوت الحيوانات المقدسة ، وبساتين متسعة ملأى بالأشجار المقدسة لا يحصيها العد ، ولا يحصرها الحد .

ومن تلك الحيوانات المقدسة العجل منفيس ، الذي كانت له في مدينة الشمس قداسة العجل آبيس في مدينة (من — نفر) أي ممفيس . (٣)

---

(٣) ويظن بعض الثقاة أن لعجول مدينة الشمس مدافن شبيهة بمدافن عجول (من — نفر) ولكنها لم يعثر عليها بعد .

ومنها بنو ذلك الطائر، الذى زعموا أنه كان يحط فى وقت معلوم على قطعة من الصخر، هرمية الشكل، مثبتة فوق قاعدة مربعة، موضوعة فى قدس الأقداس فى معبد الشمس، فاعتقد القسيسون أنه إله الشمس تقمص ذلك الطائر ، وقد دعاهم ذلك إلى تقديس قطعة الحجر الهرمية الشكل ، وأطلقوا عليها كلمة بن بن أى هريمة ، وأطلقو على قدس الأقداس بر بن بن أى بيت الهريمة . وتفاءلوا بها فجعلت قمة لمسلاتهم ، ومن ثم نبتت فكرة بناء قبور فراعنة الدولة القديمة على شكل هرم .

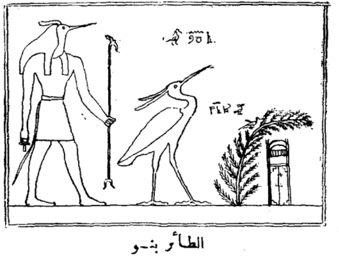


الهريمة (بن بن)

ولقد حاك الخيال الخصيب حول ذلك الطائر الأسطورة العجيبة ،وهى أنه كان إذا ما اعتراه الكبر أتى بالخشب الذكى الرائحة، وأضرم فيه النار واصطلاها، فيحترق ويصير رماداً، فيخرج من ذلك الرماد طير صغير يرتفع إلى السماء، نافضا عنه رماد جسمه السابق ، ثم لا يلبث أن يرجع إلى مدينة الشمس بعد أجل معلوم [1] وهكذا دواليك .

(١) راجع كتاب بغية الطالبين الخ الجزء الأول ص ١٢ لأحمد بك كمال

وذلك الرجوع عند المصريين القدامى رمز إلى أن كل نابتة على وجه الغبراء تذبل ثم تيبس ، ثم تموت ، ثم هى لابد عائدة إلى الحياة تارة أخرى ، وإلى أن كل ميت زائل أو ضائع فى الطبيعة ، لابد مبعوث ليحيا حياة أخرى ولعله رمز للبعث والنشور، ولعودة أوزير ، إله الخير بعد اجتيازه عالم الظلمات إلى الحياة والنور ، ولعله ، ولعله .



الطائر بنـو

ويرى بعض الثقاة أن الطائر بنوهو العنقاء التى يزعم العرب أنها أحد المستحيلات الثلاثة ،وقال بعضهم إنه طائر السمندل

وقد ذكر بروكش أنه اسم من الأسماء المقدسة للنجم المعروف بالشعرى اليمانية ، الذى يدل ظهوره المتعاقب فى الصباح وفى المساء على معنى التجديد .

وكانت ترافق ذلك الطائر العجيب فى محرابه بمعبد الشمس الإلهة بست أى القطة التى كانت عند المصريين الأقدمين رمز للدفء أو الحرارة غير المهلكة ، التى من فوائدها المساعدة على الإنبات ، وما الانبات إلا ضرب من تجدد الحياة

ولقد كان الفراعنة الشداد — أباطرة الدولة الحديثة يحرصون على أن يضاف إلى ألقابهم ، لقب أمير مدينة الشمس ، لمنزلتها العظيمة فى أنفسهم .

ولقد ظلم بعض المؤرخين قمبيز طاغية الفرس فاتهموه بهدم معبدها ، على حين أن المدينة بمعابدها ودورها العلمية ، وقصورها المنيعة ، كانت قائمة ، وفى حال من الرواء والبهجة تبهر الأبصار ، وتستهوى النفوس بعد أن زال حكم الطاغية وفات . فقد وصفها الرحالون الذين زاروا مصر ، بعد أن خلا مكانه . بزمن طويل .

ويغلب على الظن أنها ظلت عامرة ، مقدسة ، يحج الناس إليهاطلبا للعلم والبركة والثواب ، حتى أسس الاسكندر الأكبر مدينة الاسكندرية (٣٣٢ ق م) وأصبحت دارة الملك . وأنشئت فيهامعاهدها العلمية والدينية التى نبه شأنها ، وعظم أمرها ، فطغت شهرتها على شهرة معاهد مدينة الشمس ، فقل قصادها . وانصرف عنها حجاجها ، ولابدع فالناس على دين ملوكهم ، ثم لم تلبث أن هجرها بعض سكانها، طلبا للتجارة أو العلم ، أو الجاه فاضمحلت تدريجا ، ثم محتها يدالزوال أو كادت .

وفى العهد الرومانى نقل عدد من مسلاتها إلى روما والقسطنطينية والاسكندرية ومن الاسكندرية نقلت فى العصر الحديث إلى بعض حاضرات الأقطار الغربية .

وما جاء عهد العرب حتى كانت مدينة الشمس المقدسة أطلالا بالية ، تبكى من شادها ، وتنعى من بناها وهذا يحملنا على تصديق استرابون فيما ذهب إليه من أن المسيحية مسئولة إلى حد كبير عن تخريب معابدها وهيا كلها على الأقل . . . وممن يؤيدون استرابون فى رأيه هذا المؤرخ الكبير مريت باشا[1] ، فانه يرى أن تخريب المدينة الكلى بدأ ببدء الديانة المسيحية وانتشارها لأن الأقباط استولوا حينئذ على العمائر المقدسة واتخذوها مساكن لهم وكانت أركان المعبد سليمة حتى ذلك العهد فشحنوها ببيوتهم وبذلك اتلفوها ودمروها ، وعلى ذلك فالأطلال التى تشاهد الآن فى عين شمس حول المسلة القائمة ، ليست باطلال المدينة القديمة ، بل هى اطلال المدينة القبطية [2]

---

(١) احمد باشا كمال : ترويح النفس ص ١٦٢

(٢) يذهب مريت الى أن مدينة الشمس « أصابها الدمار ثلاث مرات . . . المرة الأولى كان خرابها على يد الهكسوس والمرة الثانية على يد قمبيز ، والمرة الثالثة على يد بختنصر . وفى كل مرة كانت تمتد اليها يد الاصلاح والعمارة ، وكانت توجه إليها جهود الولاة والأهلين فتحيي دراستها المتبدد وتفتح مدارسها المشهورة لجميع الطلبة على اختلاف طبقاتهم ونحلهم فيقبسون منها العلوم والمعارف كما أخبر استرابون، وفى المرة الرابعة والأخيرة تم خرابها ، وكل دمارها بسقوط الديانة الوثنية وظهور الديانة المسيحية . . . . ص ١٦٣ ترويح النفس .

ولقد رأى عبد اللطيف البغدادى [١] (فى سياحته فى مصر سنة ١١٩٥ م) مدينة الشمس فكتب عنها فى كتابه الافادة والاعتبار . . الخ ما نجمله فيما يلى :

« عين شمس بلد صغير ، به خرائب ، بينها جدران ظاهرة ، من السهل أن نتبين أنها جدران لمعبد ، فقد وجدت بجوارها تماثيل ضخمة هائلة ، ولكنها متماثلة الأعضاء ، وهى من حجر منحوت ، يبلغ ارتفاع بعضها ارتفاعا عظيما » . ولقد رأى عبد اللطيف باب المدينة ، ولعله باب المعبد ، ورآه قائما كاملا ، ولما تمتد إليه يد البلى كما امتدت إلى بقية بناء المعبد . وذكر أن التماثيل وقواعدها والأحجار المبعثرة التى رآها مغطاة بنقوش وكتابات هيروغلوفية .

وكتب شافع بن على فى كتابه عجائب البلدان عن مدينة الشمس ما يأتى : « عين شمس مدينة صغيرة يشاهد سورها محدقا بها مهدوما ، ويظهر من أمرها أنها كانت بيت عبادة ، وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحت الأحجار ما يكون طول الصنم بقدر ٣٠ ذراعا . وأعضاؤه على تلك النسبة من العظام ، وكل هذه الأصنام قائمة على قواعد وبعضها قاعد على نصبات عجيبة ، واتقانات محكمة . وباب المدينة موجود إلى الآن ، وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير على شكل الانسان وغيره من الحيوانات ، وكتابة كثيرة بالقلم المجهول . وفى هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون .

وكتب ابن خرداد به :

(بعين شمس من أرض مصر اسطوانتان من بقايا أساطين كانت هناك ، فى رأس كل اسطوانة طوق من نحاس يسيل منه الماء) .

وكتب محمد بن عبد الرحيم فى كتابه تحفة الألباب (ان هذا المنار يريد المسلة التى بقيت على الدهر) مربع علوه مائة ذراع ، وهو قطعة واحدة ، محدودب الرأس

---

(١) هو عبد اللطيف بن يوسف ولد فى بغداد سنة ١١٦٢ م ودرس الطب والفلسفة وعلوم اللغة وزار ايران والشام ومصر ، وقد زار مصر مرات عدة وأقام فيها بعض الوقت (١١٩٨م — ١٢٠١م) وألف فيها كتابه المشهور الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر .



السيدة مريم تغسل ثياب عيسى الصغير من العين الجارية

على قاعدة من الحجر ، وعلى رأس المنار غشاء من الذهب . . ثم ذكر ظاهرة سيلان الماء من المسلة كما ذكرها ابن خرداذبه .

وعلى مقربة من مسلة عين شمس الباقية ، دوحة وارفة الظلال ، تسمى شجرة العذراء يقصدها الزوار والسائحون [1] لمشاهدتها والتبرك بها ، ولهذه التسمية قصة يرويها قبط مصر ، نجملها فيما يلي :

حينما أحست مريم ابنة عمران بالحمل ، وهي عذراء لم يمسسها بشر ، هلعت وانتبذت مكانا قصيا ، ولما جاءها المخاض ، وولدت عيسى بن مريم ، وكلم الناس في المهد صبيا ، ائتمر الكفار ليقتلوه ، فخافت عليه الهلاك ، ففرت به الى مصر [2]

---

(١) لقد وفد على مصر السائح (وانسلب) سنة ١٦٧٢ م وروي أنه زار المطرية في شهر يونيه من تلك السنه ومعه بعض أصحابه ، وشاهد مصلى مبني علي أنقاض كنيسة قديمة للقبط ، بها شيء من آثار المسيح في مكان يسمى المقعد ، كما شاهد حوضاً يعتقد الأقباط أن السيدة مريم كانت تغسل ثياب ابنها فيه ، وكانت تضجعه في القبلة التي هي محل عبادتهم ودعواتهم . والمسلمون والاقباط معاً يعتقدون أن المسيح عيسي بن مريم اغتسل في البئر الذى في المقعد المذكور ، فزادت حلاوة مائها عن باقي المياه . . . قال وبعد أن استرحنا في المقعد وشربنا من الماء ، دخلنا البستان ، ونظرنا شجرة الجميز التي يزعم القبط أنها انشقت واختفى بداخلها المسيح وأمه حينما كان يطلبهما أعوان الظالم هيرودوس ، وأن محل انشقاقها نسج العنكبوت عليه خيوطه . اهـ ص ١٦٣ ترويح النفس .

(٢) قال أبو الريحان . . . « ودخل الى مصر عيسي بن مريم وأقام بقرية بالصعيد يقال لها أهناس » (تاريخ مصر لابن اياس ، الجزء الاول ص٤) . ولقد قص الأنجيل مجيء عيسى بن مريم الى مصر كالآتى « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودوس الملك اذ المجوس من الشرق قد جاءوا الى أورشليم قائلين : أين المولود ملك اليهود . . . . وأتوا إلى البيت ، ورأوا الصبي مع مريم أمه . . . ثم إذ أوحى اليهم في حلم ألا يرجعوا الى هيرودوس انصرفوا في طريق أخرى إلي كورتهم . وبعد أن انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا : قم وخذ الصبي وأمه ، واذهب الى أرض اسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى .)

ويروى كتاب تاريخ الكنيسة (سنك سار) القصة ملخصة فيما يلي : حين أوشك المسيح أن يتم عامين قدم أورشليم ملوك من الشرق يحملون هدايا من الذهب واللبان والمر ليقدموها لمولود بيت لحم (يعنى المسيح) فأحدث مجيئهم قيلا وقالا وهرجا ومرجا وتأدى خبر مجيئهم إلي هيرودس الملك فاستقدمهم وسألهم عن سبب مجيئهم فأخبروه عن ظهور نجم ملك اليهود ، وعرف منهم موعد ظهوره . . . فأمر بقتل جميع (أطفال بيت لحم وتخوم اليهودية من ابن سنتين فما دون حتى لا ينجو المسيح من الموت) فأوحى إلي يوسف خطيب مريم أن يأخذ الصبي وأمه ويرحل إلى أرض مصر ==

وقصها أعداؤها ، وكادوا يدركونها حين وصلت مدينة الشمس ، لولا أن تراءت لها دوحة عظيمة فى جذعها كهف ، فأوت إليه واختبأت به فى جوفها .

ويزعم بعض الناس أن الدوحة التى اختبأت فيها العذراء هى التى لا تزال قائمة على ساقها وارفة الظلال كما كانت حين احتمت بها العذراء .

وما هذه الدوحة فى الحق إلا سليلة الدوح المقدس ، الذى كان ينمو فى بساتين معبد الشمس وما قصة العذراء إلا تحريف لأسطورة مصرية قديمة عن إله من آلهة المصريين الأقدمين ، نجا من مطارديه باختبائه فى جوف شجرة ، ولم يقف وجه الشبه بين الأسطورة المصرية القديمة وقصة العذراء عند هذا الحد ، بل تعداه إلى ذكر أن العذراء حين مر مطاردوها بالشجرة ، ولم يربعوا عليها ، خرجت من مخبئها . وغسلت ثياب عيسى الصغير ، فى عين جارية [1] ، وكان ماؤها ملحا أجاجا

= فبداوا رحلتهم ليلا ووصلوا إلى مدينة بسطا ثم منها إلى منوف ثم إلى وادى النطرون ، ثم إلى الاشمونين ثم الى المحرق ، ثم مات هيرودوس وأوحى إليهم بأن يرجعوا الى فلسطين فعرجوا الى بابليون . . . . ثم اجتازوا بالمطرية واغتسلوا هناك من عين هناك فصارت مباركة ومقدسة من تلك الساعة ونمت بقربها شجرة البلسم التى من دهنها يصنعون المستزون المقدس .

(١) وفى رواية أخرى أن مريم ابنة عمران حين آوت الى جذع الشجرة ومر بها أعداؤها من غير أن يفطنوا الى وجودها ومن معها ، فخرجت من مخبئها وجلست تحت تلك الشجرة فأحس الصبى عيسى بالظمأ فضرب برجله الأرض فانفجرت عين ، ماؤها عذب فرات ، فشرب منها عيسى وأمه وصاحبها يوسف النجار وحمارهم حتى اكتفوا ثم غسلت مريم ملابس ابنها بمياه تلك العين ، وألقت بالماء المتخلف عن ذلك فجاء على عصا يوسف النجار التى كان قد ركزها فى الأرض ، فدبت فيها الحياة ، ورست فى الأرض جذورها وامتدت فى الهواء فروعها وسرعان ما أزهرت وفاح عبيرها . . . وأصبح عصيرها دواء شافياً من جميع الجروح والبثور . . . وما لبث أن انتشرت زراعة البلسم فى مصر وعم نفعه .

ولقد كتب ابن اياس عن البلسم فى مصر ما يأتى « ولما دخل قرن التسعمائة زال من محاسن مصر أشياء كثيرة ، منها أن البلسم انقطع وجوده من مصر ، وكان من آثار عيسى عليه الصلاة والسلام » . تاريخ مصر لابن اياس ص ٧ .

ولقد ذكر عبد اللطيف البغدادى أن البلسان (البلسم) لا يوجد اليوم (القرن الثانى عشر الهجرى) الا فى مصر بعين شمس فى موضع معنى به محافظ عليه ، مساحته سبعة أفدنه وارتفاع شجرته نحو ذراع واكثر من ذلك ، وعليها قشران ، الأعلى أحمر خفيف ، والأسفل أخضر ثخين =

فصار عذبا فراتا . ولما عصرت الثياب ، تساقطت قطرات من الماء على الأرض ، فكان كلما سقطت قطرة فى بقعة ، نما فيها نبات من البلسم الشافى [1] . كذلك انتهت الأسطورة المصرية بأن نبات البلسم الشافى كان ينمو فى منازل قطرات الماء التى كانت تساقط من السماء بأمر ملك كريم .

= واذا وضع في الفم ظهر منه دهنية ورائحة عطرية ، وورقه يشبه ورق الذاب ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى .

(١) وعن السيوطى عن صاحب كتاب غرائب العجائب : ان بئر البلسم توجد فى أرض مصر بقرب المطرية ، يسقى من مائها شجر البلسان ، وهو دهن عجيب ، ينسبون خاصيته الى ماء هذا البئر ، بسبب أن المسيح اغتسل فيه . ولا ينبت فى غير هذا الموضع .

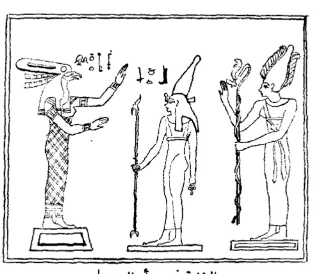
وقيل أن شجر البلسان الذى كان بالمطرية نقل الي مكة ، فنمت فيها وتكاثرت وتلت من مصر ، وما زالت تنقص الى عام ١٦١٠ م حين لم يوجد غير سبع شجرات فى أحد البساتين .

وقال بيهور : إن آخر شجرة من البلسان ماتت سنة ١٦١٥م بسبب فيضان النيل ، ومن ذلك الحين خلت مصر منه ، فلا ينبت الا فى سواحل مكة والمدينة ، وفى ضواحى سواكن .

الفصل الثالث

ان سلطان عين شمس السياسى ، الذى فصلنا خبره فى الفصل الثانى ، لم يدم طويلا ، إذ استقلت مصر العليا ، واتخذت نخن [1] ، الواقعة على الضفة اليسرى للنيل بإزاء الكاب قصبة لها ، واتخذت الدولة الناشئة نبات البشنين شعارا ، ولبس ملوكها تاجاً أبيض ، عرف فيما بعد بتاج مصر العليا ، ولذا أصبح البياض بعد ذلك اللون الرسمى للدولة .

وكانت المعبودة الحامية لهذه المملكة الفتية نخب وهى شكل محلى من أشكال الآلهة حاتحور ، وكانت ترسم أو تنقش على هيئة امرأة على رأسها التـاج الأبيض ، تحف به ريشتان ، وكانت تصور أحياناً بهيئة أنثى النسر وتوصف بالبيضاء .


الالهة نخب أو البيضاء

وانتقل ملك مصر السفلى إلى بوتو (٢) (ابطو الحالية) القريبة من دسوق ،

---

(١) حاضرة مقاطعة نخن أو نثن فى بعض الروايات ، والتى خلفتها مدينة الكاب (نخبت) وخلفت الكاب اسنا فى العهدين الاغريقى والرومانى .

ويرى سليم حسن بك أن نخن خلفت (قفط) كحاضرة لمملكة الجنوب ص١٤٩ الجزء الأول من مصر القديمة .

ويذهب الدكتور بدوى إلى أن الاقليم نخن والحاضرة الكاب .

(٢) لا تزال آثار بوتو باقية ويطلق عليها الأهلون تل إبطو ، وعلى مقربة من هذا التل تل آخر يعرف بتل الفراعين وهو البقية الباقية من مدينة يونانية قامت على مقربة من أطلال بوتو الفرعونية .

وكانت لبوتو ضاحية راقية تسمى وبو، اختارها ملوك الشمال مقرا لهم ومقاما ، وكانت آلهة تلك المملكة الحامية لها وازيت أى الصل . وكانت توصف بالحمراء . وكان شعارها نبات (البردى) واتخذ ملوكها تاجاً أحمر ، وكان اللون الأحمر لذلك هو اللون الرسمى لمملكة الشمال .

ولقدكان الاله المحبب حور إلهاً مقدساً فى المملكتين . وكان فى نخن معبد ، وكان يسمى پرْوِر أى المعبد العظيم ،كما كان فى بوتو معبد يسمى برنسر أى معبد النار[1] وإنا لا ندرى أسباب سقوط دولةالشمس وظروفه . فقد تكون الأسباب العامة فى سقوط كل دولة هرمت ، فاعتراها الضعف والهزال ، وأثرت ، فألهاها الثراء وأبطرها،وأنهكها الترف وأسكرها النعيم ، فانتهز أهل الجنوب الفرصةالسانحة وكانوا يحرقون الأرم لغلبة أهل الشمال عليهم ، فثاروا وتحرروا وأعلنوا استقلالهم، واستغل أمراء بوتو ذلك الظرف المواتى لهم فاستقلوا بمملكة الشمال .

على أن مملكتى الجنوب والشمال لم يقدر لهما أن يصمدا طويلا أمام عوامل التفكك والانقسام التى بعثوها أو أججوا نارها ، فستهم ، إذ انقسمت كل منهما أقساماً ، أى أن مصر عادت ولايات صغيرة كما بدأت ، فضعفت قوة مقاومتها ، واستهدفت لغارة قوم لا يمتون إلى أهل الجنوب بصلة ، ولا يشبهون المغاربة (الليبيين) أو المشارقة فى السحنات والشكل . هذا إلى أنهم كانوا أقصر قامة منهم جميعاً .

---

(١) ولما كان فراعنة مصر المتحدة أى خلفاء مينا الوارثين لملكى المصرين العليا والسفلى ، فقد ظلوا يعنون بالمعبدين المذكورين ، ويهبون لهما الهدايا ، ويقربون لها القرابين .

وإنا لانعلم علم اليقين السبب فى تسمية معبد بوتو بمعبد النار ، واضفاء صفة العظيم على معبد نخن — فهل كان معبد نخن من الاتساع والضخامة والفخامة والرونق والرواء والبهاء بحيث يستأهل تلك الصفة التى وسم بها ؟ على حين أن بعض المؤرخين يرون أن المعبد الذى أقامه (منا) لرب (من ــ نفر) ، بعد ذلك العصر بمئات السنين ، كان صغيراً حقيراً ، وهل كان لاسم معبد النار علاقة بعبادة النار ، تلك العبادة التى لانعلم أنها نشأت فى مصر ، أو تسربت اليها من بعض الامم الشرقية التى قدستها وعبدتها . . على أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن تسمية معبد بوتو بمعبد النار إشارة إلى السم الكامن فى أنياب وازيت (الصل) ربة المعبد ! وما السم إلا نار حامية .

جاء هؤلاء القوم من موطنهم الأول عن طريق البحر حتى وصلوا إلى مكان ما بالقرب من بلدة القصير، وأرسوا سفنهم وساروا بقضهم وقضيضهم فى بعض مسالك الهضبة الشرقية، وكانت إذ ذاك أكثر ماء ونباتا، حتى صاروا على مقربة من قفط (جبتيو) ومعناها باللغة المصرية القديمة بلد القوافل[١]

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن موطن هؤلاء القوم عيلام[٢] وكانت تطلق على المرتفعات الواقعة شرقى سمر، أى شرقى دجلة. وكان العيلاميون قد بلغوا شأوا عظيما فى المدينة قبل اتصالهم بجارتهم الكبرى (سمر) وكانوا بسبب بيئتهم الجبلية أشد بأساً وامتن فتلا، وأقوى مراسا من السمريين، وكانوا لذلك إذا ماداعاهم داع، أو دفعهم دافع، يهبطون من معاقلهم الجبلية ليغزوا سهولها، ويرجعوا بالغنائم والأسلاب والأسرى.

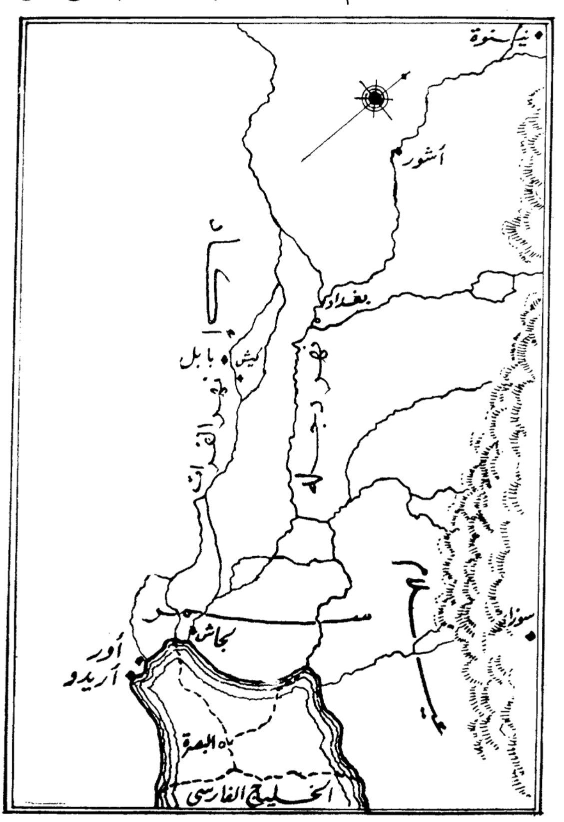
الآنون من عيلام

(١) يدلل بعض الباحثين على مجيء أولئك القوم عن طريق وادى الحمامات بوجود جل مخلفاتهم عند تلاقي هذا الوادى بوادى النيل، على مقربة من بلدة قفط.

(٢) ويدلل الذين يعتقدون أن أولئك القوم من عيلام أو سمر (١) بأن الأختام الأسطوانية التي ظهرت فى مصر عقب ظهورهم فيها، ظهرت فى بلاد بين النهرين، في العصر نفسه، وأنهم كانوا يتكلمون لغة سامية تخالف لغة أسلافهم وأن بعض الحروف الهيروغلوفية التى بدأت عقب وصولهم إلى مصر، مأخوذة عن اللغة السامية مثل حرف الدال الذي يعبر عنه برسم اليد.

وأن هذه الأختام ظهرت فى بلاد، مابين النهرين، مع ظهور الكتابة السومرية على حين أنها ظهرت فى مصر عقب مجيء أولئك القوم وقبل استعمال الكتابة الهيروغلوفية مما يحمل على الظن أنها منقولة من تلك البلاد.

ولقدأدى اصطدامهم ببابل ـــ التى ضمت سمر اليها فاصبحت جزءا من امبراطوريتها الى اتصال تجارى فى زمن السلم ، فكانت تصدر بابل إلى عيلام القمح والبلح ،



وتستورد منها الأحجار الصلدة والأخشاب ، كل يرسل إلى جارته ماتجود به أرضه .

ولا نعلم علم اليقين أسباب هجرة العيلاميين إلى مصر وظروفها. فلا ريب انه كان بين القطرين اتصـــال تجارى، عرف منه تجار عيلام خصب أرض مصر وضعف حكومتها المتخاذلة، فدعا ذلك بعض العيلاميين إلى الهجرة اليها مختارين، وربما يكون قد جد بعد علمهم بحال مصر مااضطرهم الى هجر وطنهم إلى أرض عرفوا يسرها وسهولة غزوها، لأن الناس لا يتركون أوطانهم عادة — وقد حببها الله إلى قلوبهم — الا مضطرين.

ويخالف بعض المؤرخين رأى الذين يعتقدون أن أهل الحضارة الثالثة أى حضارة نقادة الثانية عند بعض المؤرخين آتون من وراء البحار، ويذهبون إلى أنهم جاءوا من مصر السفلى موطنهم الأول، والذى أقاموا فيه آلافا من السنين قبل أن يهجروه الى مصر العليا، حيث نشروا ثقافتهم وأسسوا حضارة أسلافهم.

ولا ينكر أصحاب هذا الرأى أن أولئك القوم سلكوا وادى الحمامات إلى نقادة بعد أن طوفوا فى الصحراء الشرقية، وكانت أكثر ماء ونباتا، وضربوا فى أغوارها ونجادها.

ويردون على الذين يستغربون تفضيلهم ذلك الطريق الوعر الموحش، القليل الماء والزرع على طريق الوادى، وهو الطريق الطبيعى الأسهل والأقرب والأكثر خصبا وسلامة وأمنا، يردون عليهم بأنهم لم يسلكوا الطريق الذى سلكوه إلا مضطرين، لفرارهم من عدو غالب، هزمهم وحاصر حاضرتهم وأخذ عليهم مهاربهم إلى مظانها، ففضلوا هجر وطنهم الغالى، واستصوبوا الضلال فى مهامه الصحراء على ذل الأسر، ولكن الله كتب لهم الهداية والسلامة. ويدللون على صدق نظريتهم، بأن حاضرتهم التى كشفت حديثا، على مقربة من المعادى تحمل بين طيات مخلفاتها آثار حرق وتكسير وتخريب.

وبعد أن وصل العيلاميون قفط، انتشروا فى وادى النيل شمالا وجنوبا، من غير أن يلقوا مقاومة تذكر: مبتغين الحلول فيما طاب لهم من بقاعه، يسيطرون

على أهله ، ويعتبدونهم وبخاصة فى مصر العليا [١] .

ولما استقر هؤلاء فى مواطنهم التى اتخذوها ، نشأت مدنية جديدة أوفى من سابقتها ، ومن مميزات المدنية الجديدة أو الثالثة استخدام دولاب الفخارى فى صنع الفخار وانتشار الكتابة الرمزية (الهيروغليفية) واستعمال الاختام الاسطوانية والسيطرة التامة على مياه النيل ، وتصريفه بمقدار ، وذلك بإقامة القناطر المصرفة ، وتقدم الفنون ، ولا سيما فى النحت والبناء .

ولم يمض إلا قليل على قدوم العيلاميين حتى ظهر فيهم فى مدينة طينة[٢] عاصمة مقاطعة (تا ـ ور) — أى الأرض العظيمة ـ وموقعها ظاهر فى الخريطة ، غربى البلينا إحدى مراكز مديرية جرجا ، على مقربة من (آب جو) أى أبيدوس ومعناها تل رمز رأس أوزير — أمير أيِّدٌ وقائد ماهر وسـياسى محنك يدعى مينا (٣)

---

(١) علهم اتبعوا وادى العنبجة الذى ينحدر إلى البحر الأحمر بالقرب من القصير ، ومنه إلى وادى البيضا ، الذى توجد فيه الآن مناجم فوسفات البيضا ، ومنه إلى وادى السيالة ، وساروا فيه صعدا إلى خط تقسيم المياه بينه وبين وادى الحامات ، ومن خط التقسيم انحدروا إلى وادى الحامات الذى توجد فيه الآن مناجم الفواخير لاستخراج الذهب (على بعد ٨٦ كيلومترمن القصير) والذى ينتهى إلى الوادى (أى وادى النيل) على مقربة من قفط .

(٢) وهى فى اللغة المصرية القديمة (تن) ، قيل إنها جرجا أو البربا وهى بلدة على بعد سبعة كيلو مترات شمالى جرجا . ولقد خلفت طينة كقصبة للمقاطعة (آب جو) والتى لا تزال آثارها باقية باسم العرابة المدفونة . ويرى أحمد كمال باشا أن طينة بلغت نهاية عظمتها فى عصر ما قبل الأسرات ، أى العصر الذى يسميه عصر الكهنة وفى ذلك يقول (كانت طينة فى عصر الكهنة قبل الملك (مينا) دارا للحكم والعلم والديانة وغير ذلك من المآثر الحميدة التى اشتهرت بها . وامتازت من أجلها عن غيرها من المدن ، إلى أن تولى على مصر الملك (مينا) فتركها لميل أهلها إلى الكهنة وأسس مدينة (منف) ، فأخذت طينة فى الانحطاط والاضمحلال ، فهاجر منها أهلها ونزلوا بجوار مقبرة المعبود (أزوريس) التى كان يزورها الناس تبركا ، وأسسوا حولها بلدة اسموها (إبدو) بالمحل المعروف الآن بالعرابة المدفونة — فانتقلت إليها العبادة والشهرة التى كانت لمدينة طينة من قبل ، وانحط قدر الكهنة وانطوى ذكرهم بانطواء ذكر مدينة طينة (العقد الثمين)

(٣) جاء فى كتاب سليم بك حسن . مصر القديمة الجزء الأول ص ٢٦٧ ما يأتى : يعد المؤرخون مينا أول ملك أسس الوحدة المصرية (؟) وقد كانت له مهابة فى قلوب الفراعنة الذين خلفوه ، حتى أنهم ألهوه بعد موته ، وبقيت عبادته زمنا طويلا ، حتى أننا بعد مضى عشرين قرناً على وفاته وجدنا تمثاله يحمل فى مقدمة كل تماثيل الملوك الآخرين فى احتفال دينى فى عهد رمسيس الثالث ، فى معبده المعروف فى مدينة هابو ، فى الجهة الغربية من طيبة .

(٣٤٠٠ ق . م) فقاد جيشاً لجباً ، وانتزع الملك من أمراء نخن ، وغلب ملوك الشمال ، وتمت على يده وحدة المصرين لآخر مرة فى التاريخ ، وجمع على مفرقه بين التاجين — تاج مصر العليا الأبيض ، وتاج مصر السفلى الأحمر . على أن مصر السفلى لم تفقد بهذا الضم شخصيتها ، بل ظلت محتفظة بها ، وبتاجها وبادارتها الخاصة . ولم يلقب مينا بملك مصر ، بل كان يلقب بملك مصر العليا ومصر السفلى ، وكان من ألقابه رب الأرضين ، وسيد نسر الجنوب ، وصل الشمال ، وكان يظهر تارة لابسا تاج مصر العليا الأبيض وطوراً يرى بتاج مصر السفلى الأحمر ، كما يظهر ذلك فى لوحته (لوحة نارمر المشهورة) .

الملك الفاتح مينا موحد المصرين

ولهذا يميل بعض مؤرخى مصر القديمة إلى القول بأن اتحاد المصرين (الوجهين البحرى والقبلى) لم يكن نتيجة لحرب بينهما انتهت بغلبة مصر العليا على السفلى ، ولكنه كان اتحـــادا سلميا عن طريق الوراثة ، فقد كانت أم مينا — فى رأيهم أميرة بحرية مات أبوها ملك الوجه البحرى ، وكانت وحيدته فورث حفيده مينا ملكه(١) .

(١) لقد كان الفراعنة خلفاء مينا يحتفلون احتفالا مهيباً بعد تتويجهم بعيد ضم الوجهين وأطلقوا هذا الاسم على السنة الأولى من حكم كل منهم . برستد ص ٢٩ .

ويرى أحمد باشا كمال أن مينا قضى على سلطة الـكهنة ، واستبدل بالنظم والقوانين القديمة نظما وقوانين جديدة ، وغير كثيرا من الشعائر الدينية (ص ٢٠ العقد الثمين) .

ولهذا لم يقسر مينا أهل الشمال على نظامه كما يفعـــل الغالبون ، ولم يحتل حاضرتهم بجنده ، ويحكمهـا بأعوانه ، كشأن الغزاة الفاتحين ، ولـكنه ترك لهم نظمهم ، وأقر حكامهم[١] . ولم يشعرهم بيد الجنوب العليـا » وينظر بعض مؤرخى العصر الحديث إلى مينـا ذلك الملك الغلاب . . . نظرة تكاد تتهم الرجل بشيء من قصر النظر السياسى فهو لم يقدر — حينما أبقى على نظم الحكم الشمالى ، فتركها قائمة ما قد يلاقى من جراء ذلك ، ومن هنا كانت سياسته بتراء . . . فقد كان من الممكن بعد هذا النصر الرائع الذى رزق على أهل الشمال ، وبعد الذى قدر له من نفوذ وسلطان ، أن يرفع راية الاتحاد عالية خفاقة فوق ربوع الدولتين ، وأن يوحد النظم ويلبسها لوناً واحداً ويجعل زمامها إلى إدارة واحدة » [٢] . على أنه يصعب على المصدقين لهذا الرأى (أى اتحاد المصرين من غير حرب) تفسير كثرة الأسرى والغنائم التى استولى عليها نارمر ، الذى أجمع المؤرخون على أنه مينا ، عقب انتصار جيوشه على جيوش مصر السفلى ، إذ بلغ عدد الأسرى ١٢٠,٠٠٠ ، وعدد الثيران والمعزى ٤٠٠,٠٠٠ و ١,٤٢١,٠٠٠ على التوالى (٣) .

على أن مينا هذا (٤) ، لم يترك للمؤرخين أثراً هاماً (٥) مصدقاً لما يرويه عنه

(١) يرى كثير من المؤرخين أن مينا لم يكن ابن أميرة بحرية ولـكنه تزوج أميرة بحرية لتوطيد ملك أبنائه من بعده .

(٢) بدوى فى موكب الشمس .

(٣) و . م فلندرز بترى — الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة س ١٩٤ .

(٤) قال ماشون ، المؤرخ المصرى المعروف ، ان هذا الملك (يعني مينا) نعم بحكم طويل وسجل له التاريخ ذكراً مخلداً . . ودفن فى الصعيد بالقرب من طيبة مسقط رأسه (جهة العرابة) أو شمالى ذلك بقليل ، جوار قرية نقادة الحديثة حيث عثر على مقبرة مشيدة باللبن . . وفى هذه المقبرة وفى أمثالها بالقرب من العرابة عثر على عدة آثار من عهد الأسرة الأولى كبعض الحلى المنقوش اسم الملك مينا عليها .

(٥) يعتقد بعض المؤرخين أن اللوحة الأثرية الجميلة التي وجدت فى حفائر نخب والتي تحمل اسم نارمر أثر من آثار الملك العظيم مينا اذ أن نارمر فى رأيهم هو الملك مينا نفسه .

وهذه اللوحة من حجر الأردواز صناعتها تشهد لصانعها بالمهارة والدقة وهي ذات وجهين ، وبكل وجه أكثر من منظر واحد . كلها تمثل الملك ، محارباً ، أو فاتكا ببعض أعدائه ، أو ممثلا ببعضهم وبعضهم الآخر فارون أمامه فرار النعاج من السرحان ، والنار تلتهم مدنهم .

المصريون ، ونقله عنهم رواة اليونان من أنه زحزح النيل من مكانه ، وبنى (من — نفر) وأسس معبد الإله فتاح (بتاح) وإنه اتهم بعد موته بأنه غير عادة أسلافه من الزهد والقناعة وعيش الكفاف إلى إبداع أنواع الزينة والمهرجان ووضع الطعام على السفرة والأكل على السرير فى حالة اضطجاع ، واقتدت به الملوك بعده(١) وانتهت حياته بأن أكله فرس النهر(٢) ، ولهذا السبب لا يصدق كثير من المؤرخين الثقاة قصته ، ويرون فيها قصة خرافية ، من أمثال ما يقصه المصريون عن أوزير وإيزيس وحور وست . ومن الأسباب التى زعزعت اعتقادهم فى صدق رواية المصريين الأقدمين عن أول ملوكهم زعم كثير من الأمم الأخرى أن أول ملوكهم ، ومؤسس أسراتهم يحمل أسماً شديد الشبه بأسم هذا الملك .

ففى بلاد الأغريق يطلق على هـــذا الشخص مينوس (Minos) وفى فرجيا (Phrygia) مانيس (Manis) ، وفى ليديا (Lydia) مينس(Maues) وفى الهند منو (Menu) ، وفى ألمانيا مانوس (Mannus) . وينهار اعتقادهم حين يجدون أن مينا منحوت من اسم الحاضره التى أسسها ، كما نحت اسم روملس (Romulus) مؤسس روما الخرافى ، والذى أرضعته الذئبة بلبنها ، من البلد الذى أسسه ، واسم نن أو نينوس الأشورى من اسم نينوه .

على أن آراء المؤرخين المتشككين فى أمر وجود مينا لم تسم الى درجة اليقين ولم تصل حججهم التى بسطناها إلى درجة الاقناع . ولهذا فاننا نرى فى مينا شخصية حقة ، ونصدق ماروواه عنه خلفاؤه وشعبه المعاصر .

❊ ❊ ❊

ولم تعد طينة ، ولانخن ولاغيرهما من الحواضر السابقة ، — بعد اتحاد المصريين على يد مينا — تصلح لأن تكون قصبة المملكة المتحدة العظيمة ، فاختار مينا موقعا

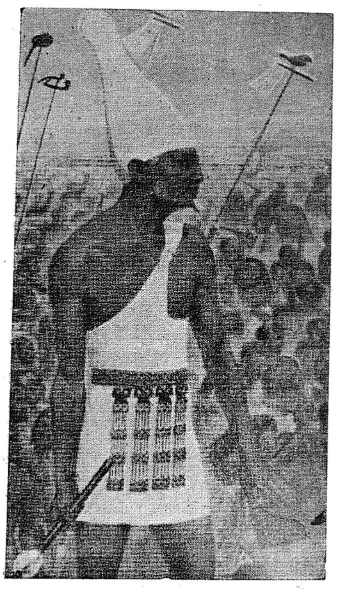
---

(١) احمد باشا كمال : العقد الثمين . . ص ٢٠

(٢) قال مانيثون « إنه لما تغلب الملك (مينا) على طائفة الكهنة ، ونزع الحكم من أيديهم بالقهر والغلبة ، نسبوا إليه سوء العاقبة ، وقالوا إنه ابتلعه تمساح البحر : العقد الثمين . . لاحمد باشا كمال . ص ٢٦ .

بديعا ، له ما لعين شمس من مزايا ، ويفضله من الناحية الحربية . اختاره غربى النيل عند رأس الدلتا فى ذلك الحين ، والى الجنوب من عين شمس ، وفى مكان يضيق فيه الوادى ضيقا ييسر صد الجيوش الغازية ، فزحزح عنه النيـل ليفسح لدارة الملك وعاصمة البلاد ، (من نفر) أو منف (١)

ولقد برهنت حوادث التاريخ أن مينا كان صادق الفراسة، وأن الآراء الإدارية والحربية التى كانت تدور فى خلده ، عند اختياره مكان حاضرته الجـديدة ، كانت صائبة، وأن بعد نظره فى ذلك كان عظيما . فلقد قضت الظروف السياسية المحضة نقل حاضرة مصر المتحدة من ذلك المكان البديع مرات عدة ، ولـكنها لم تدم طويلا ، فى أمكنتها التى اختيرت لها ، إذ رجعت آخر الأمر إلى المكان الذى أوحت العوامل الجغرافية إلى مينا أن يختاره لهـــا .



الملك مينا يقود جيشه

ويروى المؤرخون أن مينا زحزح النيل من مكانه ليفسح لدارة الملك وعاصمة

(١) كان يطلق عليها أنب حز (الجدار الأبيض) وآى بتاح أي بيت بتاح .

البلاد (من نفر) وإن زحزحة النيل (١) لعمل مجيد لا يضطلع به إلا جبابرة الملوك .

ويتساءل كثير من المؤرخين كيف استطاع ملك ، بدأبه تاريخ امة ، أن يقوم بهذا العمل الجبار ، الذى يقتضى كفاية هندسية عالية ، وخبرة فنية طويلة ، وعددا وآلات راقية ، ووسائل غير بدائية ، والذى إذا رامته الان — أى بعد خمسين قرنا من عهد ذلك الملك الجبار — أمة ، فكرت طويلا ، ثم شرعت فى تدبير المال اللازم ، وجمعت أعظم مهندسيها ، واستقدمت أشهر خبراء العالم فى علم الهندسة وفن البناء ، فائتمروا ، وقد يختلف المؤتمرون ، فيؤجل العمل ، وقد يجمعون على رأى ، وإذا ما أجمعوا أمرهم على رأى ، اختاروا له المنفذين . ومن ثم تعد الآلات الحديثة ، ويجمع الحديد والحجارة والمؤنة ، ويحشد الآف من العمال الفنيين وغير الفنيين . . ولكن تاريخ مصر كله مفاجآت .

وإن البلد الذى يبنى أحد ملوكها الهرم الأكبر ، معجزة الدهر وأعجوبة الزمان ، لا يستغرب أن يقوم سلف له ، لا يفصله عنه إلا فترة تاريخية قصيرة ، يزحزحه النيل عن مكانه . ، قال هيرودوت أول مؤرخ رحال :

أخبرنى القسيسون المصريون ، أن مينا لما أراد بناء مدينة (من — نفر) فى مكان صالح أمر بتحويل النيل عن موضعه (٢) وكان قبل ذلك يجرى محتضنا حافة الهضبة الغربية وجعله فى منتصف المسافة بين حافتى الهضبتين الغربية والشرقية بحيث يقسم أرض الوادى الخصيبة قسمين ، يوشكان أن يتساويا ، وشيد هذه المدينة

---

(١) ويرى احمد باشا كمال أن مينا زحزح النيل من مكانه قصدا إيجاد واصلاح أرض زراعية فى جهتها (منف) الشرقية . فكانت تلك الاصلاحات سببا فى عمارتها وشيد فيها أيضاً هيكلا لمعبودها (بتاح) ويستدل الآن على بابه بتمثال الملك رمسيس الثانى الملقى الآن فى البركة القريبة من ميت رهينة ، فصارت منف مركزاً للتقدم والعلوم والمعارف إلى عصر اليونان . . ص ٢٠ العقد الثمين .

(٢) يرى بعض الباحثين أن بحر اللبى . الذى يخرج من النيل عند قناطر قشيشة فى مديرية بنى سويف ويسير محتضنا حف الصحراء الغربية حتى قرية نكله شمالى مديرية الجيزة ، يجرى متبعاً مجرى النيل الأصلى قبل أن يزحزحه مينا .

فى مجرى النيل القديم حيث ردم منحنى النهر ، وجعل فى جنوبه جسرا [1] طوله مائة ستادة أى نحو ١٠ كيلوا مترات ليدفع عنها غائلة الفيضان ، وحفر بحيرتين ، إحداهما فى الجهة البحرية (الشمالية) والأخرى فى الجهة الغربية ، لتكونا بمثابة حصون تحميها من هجوم عدو مغير . (٢)

وسواء أكان مينا هو المؤسس (لمن — نفر) أى المكان الطيب أو غيره ، فسرعان ما اتسعت ، وأخذت زخرفها وازينت بالقصور والحدائق ، وعمرت بالمعابد والمعاهد الدينية والعلمية ، وأقيمت فيها النصب التذكارية والتماثيل . ويقول كابار فى كتابه « ممفيس »

إذا أريد تكوين فكرة عاجلة عن كبر حجم مدينة « ممفيس » فاصعد فى الهرم المدرج الذى يحتل نقطة وسطا بين مقابرها فانك إن فعلت ، ووليت وجهك شطر الشمال ، رأيت على بعد ٢٥ كيلو مترا تقريبا هضبة أبى رواش التى كانت تقوم عليها أهرام هى أقصى ماأقام المصريون من الأهرام شمالا (٣) ، وهى تدل على مدى امتداد (من — نفر) شمالا ثم اذا استرجعت نظرك ووليت وجهك نحو الجنوب رأيت أهرام « دهشور » ، وإذا كان بصرك حديدا جدا ، واستوت لك الأرض من بعد تكور ، رأيت على بعد خمسين كيلوا مترا ، أهرام « ميدوم » التى هى أقصى مابنى المصريون من أهرام (من — نفر) جنوبا ، فصارت بذلك تدل على مدى

---

(١) لقد كانت السدود أو الجسور التى أقامها مينا جنوبى منف فى حال جيدة ، حين زار هيرودوت مصر سنة ٤٥٤ ق . م . ، وذكر أنه أخبر أن الملوك يقومون باصلاحها كل سنة ولا تزال آثارها باقية حتى الساعة على مقربة من قناطر قشيشة فى مركز الواسطى .

(٢) يرى بعض الكتاب — ورأيهم هذا غريب لايستند إلى أساس جغرافى — أن مينا لم يزحزح النيل نفسه للغرض الذي يذكره المؤرخون وانما زحزح فرعا منه كان يجري فى بلاد الليبيين أعداءه (كذا) ليمنع عنهم الماء جزاء وفاقاً لهم على عداوتهم له بصرفه الى فرع آخر شرقيه .

(٣) قيل أنه قد وجدت آثار هرم على مقربة من اتريب أى على مقربة من بنها فيكون لذلك أقصى ما بنى من أهرام شمالا .

امتداد هذه المدينة العظيمة جنوبا . وإذا وليت وجهك شطر الشرق رأيت النيل الذى كانت بيوت « من — نفر » تشرف عليه .

كل هذه المساحات (٧٥ كيلو مترا طولا × ١٠ كيلو مترات عرضا) كانت تتوجها قصور المدينة الطيبة « من — نفر » ودورها ومعابدها ومسارح لهوها ومتنزهات أهلها . ولقد كان نشاط أهل هذه المدينة ينتقل من أحد أحيائها إلى حى آخر منها . سنة الدهر يداول بين الأماكن كما يداول بين الناس ، وكذلك كان الملوك يهجرون قصور آبائهم القائمة فى جهة منها ، إلى قصورهم التى يشيدونها فى جهة أخرى [1] .

ونستخلص بما ذكره ديودور الصقلى ، وبلنى ، والأدريس أن منف كانت تشغل مساحة كبيرة حافلة بالحدائق والبساتين ، ويحوطها سور عظيم ، وقلاع وبروج ، وحصون ، اشتهر منها حصن اسمه الجدار الأبيض ، اختلف المؤرخون فيه ، فيرى بعضهم أنه سابق لمنف . فلقد كتب سليم بك حسن عن المقاطعة التى شيدت فيها (من — نفر) ما يأتى :—

« هذه المقاطعة تسمى بالمصرية أنب حز ، أى الجدار الأبيض ، وهذه التسمية كانت فى الأصل خاصة بالتحصينات ، وهى التى أقيم بجوارها فيما بعد مدينة منف وربما كان معناها (الأثر الجميل) وقد أصبح كل من اسم (من — نفر) و(أنب حز) يطلق على اسم العاصمة القديمة لهذه المقاطعة » انتهى [2] .

بينما يرى بعضهم أن تأسيس منف سابق لتشييد الجدار الأبيض ، ومنهم الأستاذ محمود درويش المفتش بوزارة المعارف ، فإنه يقول فى كتابه رحلة إلى منف

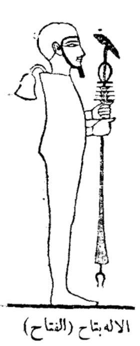
---

(١) جان كابار : ممفيس .

(٢) سليم حسن بك « مصر الفرعونية الجزء الأول ص ١٥٠ ويكتب سليم حسن بك فى صفحة ٢٧٠ من الكتاب نفسه فيقول عنها ما يأتى » : وقد وصل إلينا عن طريق الرواية أن هذا الفرعون (زر) كتب سفراً فى علم التشريح وأنه هو المؤسس لمدينة منف ، ولكن الزعم الأخير مشكوك فيه إذ من المحتمل جداً أن منف لم تكن موجودة فى عهده .

وسقارة ما يأتى . — « المعروف أن نعرمر (مينا) كان أول من فطن إلى أهمية هذا المكان فحصنه ببناء الحائط الأبيض المشهور أمره فى التاريخ وبذا ، أصبحت مدينة منف مدينة حربية محصنة » .

على حين يرى بعضهم أن الجدار الأبيض بناه أحد خلفاء الملك مينا ، فهو فى رأيهم لاحق لمنف ، وبانيها .


الاله بتاح (الفتاح)

ويرى فريق آخر أن منف أقدم من مينا ، ولم يكن الملك مينا إلا مؤسسا لعظمتها فحسب ، فقد كانت قبله قرية لا يؤبه لها ، فوسع مينا رقعتها بما بناه فيها من دور وقصور وما أضفى عليها من رفده وصيرها حاضرة المصريين ، ومقعد التاجين (١) .

ويقول الذين يرون أن مينا أى نعرمر هو بانى منف وجدارها الأبيض ، إن أول بناء أقامه بعد إتمام الجسور وزحزحة النيل ، وتسوية أرض المدينة ، وتخطيطها معبدا للإله بتاح أو الفتاح ، أقامه فى وسطها .

ولقد ظل هذا المعبد كعبة المتعبدين ، واستمر الفراعنة خلفاء مينا يوسعون رحابه ، ويملون قبابه ، ويضيفون عليه ، فتمتد أطرافه ، وتترامى أكتافه ، ويضفون عليه أرفادهم حتى فنيت منف .

ولقد شاهده هيرودوت ، وكان فى حال من العظمة والرواء والبهجة ، يعجب العين ، ويستهوى النفس ، ووصفه بأنه صرح عظيم متسع ، يستحق الخلود .

وشاهده عبد اللطيف البغدادى ، وقد امتدت إليه يد البلى ، ولكن استهواه جمال ما بقى من بنيانه ، وذكر أبوابه العظيمة التى تتحرك بمفصلات حجرية ، وتماثيله البديعة الصنع ، وأسوده التى تلقى فى روعك الرهبة و (البيت المسمى بالبيت

---

(١) سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ص ٦٧

الأخضر) (١) وهو حجر واحد ، ارتفاعه تسع أذرع وطوله ثمان وعرضه سبع ، قد حفر فى وسطه بيت جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه ذراعين ، والباقى فضاء ، والبيت جميعه ظاهره وباطنه منقوش ومصور ومكتوب بالقلم القديم ، وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلى مطلعها ، وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور الناس والحيوانات على اختلاف من النصبات والهيئات ، فمن قائم وماش وماد رجليه وصافهما ومشمر للخدمة ، وحامل آلات ينبىء ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة أمور جليلة وأعمال شريفة وهيئات فاضلة ، وإشارات إلى أسرار غامضة ، وانها لم تتخذ عبثا ، ولم يستفرغ فى صنعتها الوسع لمجرد الزينة . وقد كان هذا البيت ممكنا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة ، فحفر تحتها الجهلة والحمقى طمعا فى المطالب فتغير وضعه ، فاختل مركز ثقله وتصدع صدوعا لطيفة ، . . . إلى أن قال . . . وإذا رأى اللبيب هذه الآثار (آثار المعبد وغيره من مغانى (من — نفر) عذر القوم فى اعتقادهم فى الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة ، وجثثهم عظيمة ، أو أنهم كان لهم عصا ، اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم . وأما الأصنام وكثرة عددها ، وعظم صورها فأمر يفوق الوصف ، ويتجاوز التقدير وأما اتقان أشكالها وإحكام هيئاتها ، والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب حقا . فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته ، فكان نيفا وثلاثين ذراعا ، وهو حجر واحد من الصوان الأحمر ، وعليه من الدهان الأحمر مالم يزده تقادم الأيام إلا جدة ، وقد حفظ فيه مع عظمة النظام الطبيعي والتناسب الحقيقى . . . اهـ)

ويغلب على الظن أن معبد بتاح (٢) كان شديد الشبه بمعابد الدولة الوسطى التى بقيت خرائبها .

---

(١) الأستاذ ايبرز الألمانى الجزء الأول

(٢) يرى برستد أن معبد الملك الرسمى كان بسيط التركيب مكونا من حجرة خشبية لاقامة شعائر الدين ، يحيط بها حاجز من الحصير ، وأنه كان له حوش ينصب فيه سار تعلوه شارة المعبود ثم ساريان يظن أنهما أصل المسلات التي شيدت فى الأزمنة التالية أمام المعبد ، وأن الملوك لم يشيدوا معابدهم من حجر إلا فى النصف الأخير من حكم الأسرة الثانية .

وأهم مايسترعى نظرك فيها باب كبير عال ، يحف به عن اليمين وعن الشمال برجان غاية فى الضخامة والعلو . ويؤدى الباب إلى فناء متسع اتساعا كبيرا وغير مسقوف، تحيط به أبهاء ذات عمد ضخمة ، إذا نظرت للواقفين بجوارها حسبتهم أقزاما من فرط علوها وعظم حجمها ،وكان يخصص هذا الفناء لعامة الشعب فى الأحفال الدينية ، ويؤدى الفناء إلى بهو عظيم ، محمول سقفه على عمد ضخمة ، مرتفعة ارتفاعا كبيرا ، تتوسطها تماثيل عظيمة للملك البانى ، وكان يخصص هذا البهو للخاصة . ويؤدى البهو إلى غرف خاصة أهمها قدس الأقداس ، التى كان ينصب فيها تمثال الإله ، ويخصص للملك وأسرته ورجال الدين .

وكان يحيط بالمعبد سور عال ، يضم بين أركانه منازل خاصة للقسيسين ، الذين يؤدون الشعائر الدينية ، وصوامع للرهبان ، الذين انقطعوا لعبادة الفتاح ، وربوع لخدم المعبد ورجال الدين ، ومخازن للهدايا والقرابين وغلات الضياع الكثيرة الموقوفة على المعبد .

وفى جانب من الفناء الخارجى تقع البحيرة المقدسة التى كانت أمرا لازباً فى المعابد المصرية فى كل العصور ، والتى لا تزال إحداها ملأى بالماء المقدس فى الجهة الجنوبية الشرقية من معبد الكرنك .

وفى البحيرة المقدسة لمعبد الإله بتاح ، كانت تجرى متهادية فى ريح رخاء ، زوارق الإله المشوقة القد — إن جاز لنا هـــذا التعبير — وقد أخذت زخرفها كأنها عروسة مجلوة ، أو أمنية مرجوة ، وقد شبهوها بجندولات البندقية ، والأصوب تشبيه جندولات البندقية بها ، لأنها لاحقة لها ، ويغلب على الظن أنها على غرارها ، وقديما قالوا ما أشبه الليله بالبارحة ، ولم يقولوا ما أشبه البارحة بالليلة .

ولقد كان جميع الفراعنة الشداد ، الذين جابوا الصخر بالواد ، وبنوا قبورهم أهراماً ، من عباد فتاح الصالحين ، الذين كانوا يتقربون إليه زلفى بشتى الوسائل ، ولقد كان كهنته وبخاصة الكاهن الأعظم موضع تقديسهم ، وكثيرا ما اجتبى الفراعنة أبناءهم الأبكار ليشغلوا منصب كاهن بتاح الأكبر .

ولم يقلل من شأن كهنة بتاح سيطرة الهكسوس على مصر، لأنهم نسوا أربابهم أو كادوا ، وعبدوا آلهة المصريين ، كما تشبهوا بالمصريين فى أزيائهم وسلوكهم ، وقلدوهم فى عاداتهم ، وأخلاقهم ، واندمجوا فى المصريين إلا قليلا .

ولم يزر بمكانتهم قيام الإمبراطورية التى نقلت فى عهدها دارة الملك إلى طيبة ، فقد اختار رمسيس الأكبر ولده البكر وولى عهده كاموز ليكون « سام » أى كبير كهنة بتاح .



رمسيس الأكبر

ولقد عنى رمسيس الأكبر نفسه بمعبد بتاح اعترافا بفضل رب المعبد ، ويقال إن السبب المباشر الذى دفعه إلى ذلك قصة طريفة نجملها فيما يأتى :

قال الأولون إن رمسيس سار إلى آسيا الغربية ، بجيش حافل ، وبعد أن دوخها وتم له النصر على بعض ملوكها ، عاد إلى مصر يجرر أذيال النصر ، فخف لاستقباله نائبه الذى كان قد عينه ليدبر شئون البلاد فى أثناء تغيبه عنها ، وكان قد أضمر له السوء ، وبيت له الخيانة ولكى ينفذ خطته الغادرة ، شيد قصراً كبيراً من خشب فى أحد ثغور مصر الشرقية ، ليولم له ولقواده الولائم ، احتفالا بعودته إلى الوطن سالما غانماً ، وليقضى فيه ليلته ، وقد اعتزم أن يشعل فيه النار ، بعد أن يأوى إليه الملك وأتباعه المقربون ، وهم سكارى ، وقد تعمد أن يثقل عليهم الشراب ، ظنا منه أن الملك سيذهب طعمة لنار يخال الناس أنها شبت قضاء وقدراً ، ولكن الله سلم ، فنجا رمسيس وقواده ، بأعجوبة من موت كان محتوما .

ولعل رمسيس رأى بتاح فى منامه محذراً ، ولعله ادعى ذلك فهب من نومه

مذعوراً ، فوجد اللهب كاد يأخذ عليه مهاربه ومنافذ نجاته ، فهرب ، وباء الخائن بسوء تدبيره ، الذى لابد وأن يكون قد لقى عليه جزاءه .

ولما اطمأن قلب رمسيس ، صلى لربه ونحر، وحمد له وشكر ، وسار بجيشه إلى (من — نفر) وحج بيته (أى بيت بتاح) وأمر أمهر النقاشين فأضفوا عليه ثوبا قشيباً ، وقد نقش قصة القصر الخشبي والحريق على إحدى حيطانه ، كما اختار أحذق النحاتين ، فصنعوا تماثيل للإله المنجى ، وله ، ولما تم صنعها أقامها مثلا أعلى للدقة والجمال ، ولم يبق من تلك التماثيل بل ومن معبد بتاح كله ، بل ومن (من — نفر) بحذافيرها بحال جيدة ، إلا تمثالان منها ، أحدهما فى حظيرة من خشب(١) والآخر مطروح فى العراء ماقى على ظهره ، غائص فى الرغام ، بجوار المكان الذى كان وتوأمه فيه منتصبين مرفوعى الرأس ، شامخين بأنفهما .

وبتاح أو فتاح من أعظم آلهة المصريين ومن أعلاها مقاماً ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً لأنه أقدمهم ، فكان المصريون لذلك يلقبونه بالبارىء الذى انبعثت منه جراثيم الأشياء ، والذى قدر أرزاق الأحياء ، والخالق الذى خلق الإنسان من طين ، وخلق البيضة التى حين آذن بفتحها ، خرجت منها الشمس والقمر ، فانبعث منهما النور والضياء وأنه الواهب للشمس حين تغرب الحول والقوة ، اللذين تتمكن بهما من التغلب على جيوش الظلام لتشرق ، وتضفى على الدنيا النور والحرارة ، وعلى الكائنات الحياة ، وأنه ناشر الأموات يوم القيامة ليحيوا الحياة الأبدية الآخرة (٢) وأنه الواضع لقوانين الولادة وأحكامها (٣) (ويذكر كتاب

---

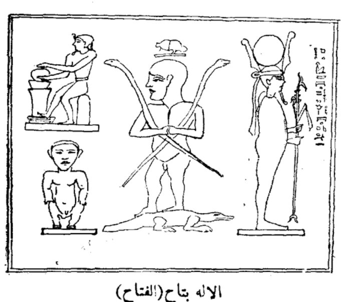
(١) أحد التمثالين مصنوع من الحجر الصوان الصلد . والثانى من حجر الجير الصلد .

(٢) وإليك وصف الاله بتاح فى أحد النصوص القديمة ترجمها الأستاذ محمود درويش منقولة من كتابه رحلة إلى منف وسقارة .

بتاح العظيم ، قلب الالهة ولسانهم ؛ وأنه فتاح كالقلب فى كل صدر، وكاللسان فى كل فم . وهو القلب الذى يفكر ، واللسان الذى يأمر بكل شيء . . وأنه لفظ كل الأسماء . . وخلق النظر للعينين ، والسمع للاذنين ، والحركة للاذرع والمشى للارجل . . والتنفس للأنف الذي ينقله إلى القلب . . وهو الذي يفعل ما يشاء أو يهب الحياة للعالم ، ويميت المجرم . . وكل شيء وجد بإرادته من مأكل ومشرب ، فكان كل شيء بتدبير القلب ، وأمر اللسان .

(٣) الأثر الجليل . . ص ٣٢٥ .

الموتى (الباب الرابع عشر) أنه هو المعبود الأصلى الذى أورد عناصر الخليقة للشمس المنظمة للكون ، ولذلك يشاهد أنه مختلط بنفس الخليقة ، الواجد لها ، إن تشكل فى مظهر الجنين المتوج دل على التناسخ ، وإن رسم واطئاً التمساح دل على كونه ظافراً بالظلمات ، لأن التمساح رمز الظلام) .


الاله بتاح (الفتاح)

(وقد يرسم على شكل المومياء ، لأن مظهره المسمى بتاح سكرأوزيرس ، يقصد به صورة أوزيرس الساكن الذى ينسخ إلى شمس طالعة . ويشاهد أيضاً فوق قاعدة مدرجة ، وجسمه ملتف بعصابات المومياء ، وعلى رأسه عقال ، وجيده محلى بوشاح عريض ، له ثقل ، وقابض بيديه الخالصتين من العصابات على إشارات خاصة

ويقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه « الله » عن « بتاح » أو الفتاح ما يلى :— ويتبين من مراجعة الدعوات والصلوات المحفوظة أن عبادة « فتاح » كانت أقرب هذه العبادات إلى المعانى الروحية ، فارتفع فتاح من صانع حاذق بالبناء والتماثيل وسائر الصناعات ، إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس الذى أصبح فى اعتقادهم مثالا للعالم بأرضه وسمائه ، وماهى إلا خطوة واحدة بين بناء الهيكل الذى يمثل العالم كله و بناء العالم كله من أقدم الأزمان قبل خلق الإنسان . وارتفع فتاح طبقة أخرى فى مدارج القدرة والتنزه عن النظراء ، فتعالى عن الأجساد الشاخصة للحس ، ويتمثل لعباده روحا مسيطرة على كل حركة وكل سكون فى جميع المخلوقات ، من ذات حياة ومن غير ذات حياة . فكان فتاح كما جاء فى احدى صلواته هو (الفؤاد واللسان للمعبودات ، ومنه يبدأ الفهم والمقال ،

فلا ينبعث من ذهن ولا لسان أوفكر أوقول بين الأرباب أوالناس أو الأحياء أو كل ذي وجود إلا وهو من وحى فتاح . .

وما وجد شيء من الأشياء قط إلا بكلمة من لسانه صدرت عن خاطر فى فؤاده فكلمته هى الخلق والتكوين .

ويرى المؤرخ الكبير (برستد) أن عقيدة فتاح هى أساس مذهب الخلق بالكلمة (Logos) عند الإغريق الأقدمين . فلا حاجة بالخلق إلى أداة للخالق غير أن يشاء ويأمر فإذا بماشاء موجود كما شاء . »

ولقد كان المنفيون يعتقدون أن بتاح يتقمص عجلا (١) له صفات خاصة ، وعلامات معينة ، كانوا يسمونه أبيس وكان يعتقد بعضهم أنه ابنه .

وكانو يفردون لهذا العجل مكانا خاصاً فى معبده الذى كان يبنى له خاصة ، ويرقد فيه على الوثير من الفراش ، ويطعم أشهى أنواع الطعام ، ويسقى ألذ أصناف الشراب ، ويمشط كل يوم شعره وينظف جلده ، ويقوم بخدمته عدد كبير من الناس ، ويحف به عدد أكبر من رجال الدين ، الذين يؤتيهم بتاح علم الغيب ، وكان يقصدهم لذلك آلاف الناس من مصريين وأجانب ليستطلعوهم ماقدر لهم من خير أوشر وإن ذكاء أولئك القسيسين وبصرهم بالأمور وعلمهم بالعقلية البشرية ، دعا الناس إلى أن ينسبوا إلى سيدهم العجل الأعاجيب .

وكانت طريقتهم فى معرفة مايتنبأ به العجل أن يقدم له الطعام ، فيقبل طعام المحظوظ السعيد ويرفض طعام الشقى المحروم .

ومن المصادفات العجيبة أن تصدق تنبؤات العجل مع بعض علماء اليونان الذين جاءوه يستفسرون (٢) فلقد لقى العالم الإغريقى (يودوكسص) حتفه ، بعد أنه

---

(١) وقيل أنه مكرر فتاح الحى: ص ٢٥ ديانة قدماء المصريين للاستاذ اشتيندرف الالمانى .

(٢) . انظر كتاب الأستاذ إيبرز الالمانى . المترجم إلى الانجليزية Egypt, Descriptive,etc, الجزء الأول .

لحس ثيابه بدلا من أن يأكل ما قدمه له . كما لقى جرمانيكص ما لقيه (يود وكسص) بعد أن أشاخ العجل عنه بوجهه مباشرة .

وكانت تقام لذلك العجل المحظوظ ، الاحفال فى أيام معينة ، فيأخذ زخرفه ، ويزين ، وتعلق فى عنقه القلائد والعقود التى تتدلى منها الحليات الذهبية ، ويخرج به جواريه ، ويحيط به خدمه وحشمه فى حفل مهيب ، ويسيرون فى شوارع معينة ، ويهرع . المنفيون رجالا ونساء وأطفالا ، من كل الطبقات والأعمار إلى الطرقات ، وينسل سكان القرى المجاورة لمنف من كل صوب ويختلطون بأهلها ، ويصطف الجمع الحاشد ، ويتدافعون بالمناكب والأعضاد ، كل يبغى مكانا يشهد منه الحفل العظيم . وكان الناس إذا ما مر أمامهم الإله بتاح خروا له ساجدين .

وإذا ماحان حين العجل المقدس ، وبلغ الناس نعيه (٢) ، تجهمت وجوههم ، وشاعت فيها الكآبة ، وفزعوا إلى بيوتهم ، ليقيموا المناحات والأحزان ، وبدأ أمهر النحاتين ينحتون من الحجر الصلد تابوتا زنته خمسمائة وألف طن أو يزيد ، ليوضع فيه رفاته .

ويحتفل بتشييعه إلى مقره الأخير احتفالا يبزفى روعته وجلاله أحفال أعياده أيام حياته . . ولقد قدر بعض الثقاة تكاليف حفل دفنه بنحو عشرين ألف جنيه ، أو يزيد .

ولقد مات أحد العجول فى عهد بطليموس الأول ، فاعتمد لتكاليف دفنه مبلغ طائل ، فنفد ولم يكف ، وطلب الكهنة زيادة الاعتماد فأعطوا مبلغاً قدر بنحو ١١٢٥٠ جنيها

---

(٢) ولقد ذكر بعض المؤرخين أن المصريين كانوا يعبدون العجل أبيس مدة خمس وعشرين سنة ، فان لم ينفق بالموت أخذوه فى مهرجان عظيم ، وأغرقوه فى النيل ، ثم حنطوه ودفنوه . . . ويلبس أهل مصر على موته شعار الحداد والحزن حتى يجدون عجلا آخر .. (ص١٥٨ من كتاب الأثر الجليل . . . لاحمد افندي نجيب)

وكانت تدفن العجول البتاحية فى مقاصير تحف بسراديب منحوتة فى الصخر الأصم بجوار منف . وقد كشف عنها حديثا بالقرب من سقارة(١)

وكان شغل القسيسين الشاغل عن كل شيء عداه بعد دفن آبيس العثور على آبيس آخر، فكانوا لذلك ينتشرون فى الأرض ، يفتشونها زقازقا ، حتى يعثروا على عجل فيه علامات أحصوها فبلغت ثمانيا وعشرين علامة أهمها :

(١) أن يكون أسود حالك السواد

(٢) « « له غرة بيضاء ، مثلثة الشكل على جبينه .

(٣) « « على ظهره صورة عقاب مرسومة رسما واضحا .

(٤) « « على جبينه الأيمن هلال أبيض.

(٥) « « شعر ذيله ذا لونين .

(٦) « « تحت لسانه مايشبه الجعل .

(٧) « « شعر جلده كثا .

(٨) « تكون أمه بيضاء لاشية فيها وأن تكون عجلة بكرا لم يمسها ثور ، لاعتقادهم أنه نشأ من قبضة من نور نزلت من السماء فى رحمها (٢)

---

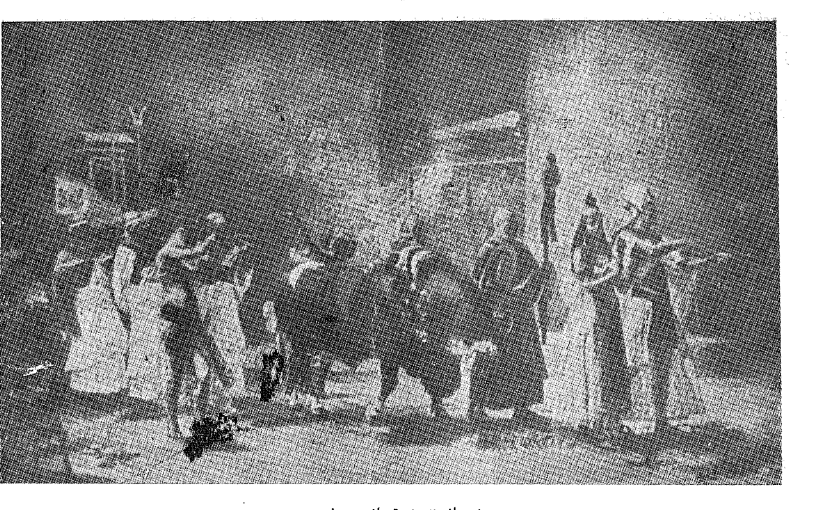
(١) لقد كانت العجول المقدسة تدفن فى قبور مستقلة منحوتة في الصخر قبل عهد رمسيس الأكبر ، وفي عهده بدأ دفنها فى مكان واحد ، فكانت تنحت فى الصخر الأصم حجرات مستطيلة ، على جانبي سرداب ، يبلغ طوله مائة متر أويزيد ، وكانت تسد كل حجرة ببناء من الحجر عند ما توضع رفات العجل فى التابوت .

وقد نحت سرداب آخر فى عهد بسماتيك الأول (٦٥٠ ق . م) وكان أكثر اتساعا واتقانا من سلفه وأصبحت توابيت العجول تصنع من الجرانيت الأسود والأحمر ، ومن الحجر الجيرى ، وكان حجمها كبيرا ، إذ كان يبلغ طول إحداها ١٣ قدما وارتفاعه ١١ قدما وعرضه ٧ أقدام ووزنه نحو ٦٥ طنا .

ولقد أقام البطالسة سرابيوم آخر فى الاسكندرية ، واهتموا بشأن سرابيوم منف الذى أصبح طوله ٣٨٠ ياردة وعرضه ١٠ أقدام وارتفاعه ١٧ قدما .

أنظر الأستاذ درويش رحلة إلى منف وسقارة ص ٢٦ — ٢٧

(٢) وفى رواية أن تكون قد حملت بهمن شعاع القمر ولذا حاول بعض المصريين القدماء أن يخلق علاقة بينه وبين القمر . أنظر الأثر الجليل ص ٣٢٥



احتفال الفراعنة بالعجل ابيس

وإذا ما عثروا على ذلك العجل ذى الأوصاف المذكورة ، فرح الناس ، وسرى عنهم ما كانوا يشعرون به من الضيق والحرج فى أثناء خلو المعبد من ربه ، ويجزل لصاحبه العطاء ، ويحاط بكل تجلة واحترام . ويقاد العجل فى حفل مهيب إلى شاطىء النهر حيث تكون فى انتظاره سفين مذهبة محلاة بأصناف الحلى ومزينة بأحسن زينة ، فتسير به إلى (من — نفر) .

ويدخل آبيس الجديد ، والبقرة أمه — إذا كانت لا تزال على قيد الحياة (من - نفر) فى حفل عظيم .

وهكذا دواليك .

ويعجب الذين وقفوا على آثار مصر القديمة الخالدة ، ودرسوا تاريخها المجيد ، فعلموا ما ابتدعه أهلها من علوم وفنون وفلسفات ، يعتقد فريق من علماء الجيل الحاضر أنها أساس كل العلوم والفنون التى يسرت للناس العيش ، وسهلت لهم سبل الحياة ، ووفرت لهم ظروف الترف وأسباب النعيم ، والتى قبستها أثينا وروما ، فقبستها عنهما المدنية الحاضرة — ويعجب أولئك من أن قوماً هذا خبرهم وهذا مقامهم عبدوا بهيمة عجماء !

ولكن يبطل عجبهم حين يعرفون أن المصريين لم يعبدوا آبس العجل ، ولكنهم كانوا يعبدون فيه طاووس آلهتهم أوزير إله الخير ، الذى نزل قديما من عليائه ومقام الألوهية ليعيش بينهم ويحيا حياتهم ويشاطرهم بأساءهم وضراءهم ، فيخفف منهما ما استطاع ، وليعلمهم ما سبق أن شرحناه فى غير هذا المقام ، فقتل بسبب عمل الخير لهم ، ورفع إلى السماء ، فعز عليه أن لا يزورهم جهرة فكان « ينزل إلى الأرض - على صورة ثور من البقر ، لا على صورة البشر ، كما كان يفعل من قبل - لزيارتهم » .

وإن تنازله هذا من مرتبة الألوهية إلى الهيئة الجسمانية ، وتركه دار السعادة المخلدة لإقامته بين البشر هى إشارة لها مغزاها ، ومعناها تضحية الإله لنفع البشر ووقايتهم من كل ضرر ، وقد ظهر لهم فى أدنى مظهر من مظاهر المخلوقات ، وأقل هيئة من أشكال ذوات الأربع من الحيوانات ، وهو شكل ثور من البقر ، قاصدا

بذلك صفتى الإحسان والخير اللتين هما من أهم الصفات المتسلطة على ذات أوزير (١)»

ولما كانت تضحية النفس هى أولى صفات الخير ، بذل نفسه فى حب البشر وجاء ليعاشرهم ، ويساعدهم فى دفع أسباب الشر (٢) .

ويذهب المصريون إلى أن وجوده على الأرض يجعلهم يذكرون تضحيته الكبرى ، وبذل نفسه لإسعاد البشر .

« كانوا لذلك يأنفون من القول بأن الحيوان الذى جعلوه معبودا لهم كان مولودا من عملية بهيمية ، بل كان من عقائدهم أن الإله بتاح، الذى يعنوا به الحكمة الإلهية — يأتى فى شكل برق سمـــاوى ، فينفخ من الروح الإلهى فى .. بقرة فيحصل لها اللقاح ، فتضع العجل المقدس مع وجود بكارتها » (٣)




لوحة نارمر

ولنرجع كرة أخرى إلى عهد مينا، الذى بدأ كما قدمنا بتشييد بيت الإله قبل بيته ، ولما أن تم تشييد بيت معبوده الأعظم بتاح وفرغ النقاشون والحفارون والمصورون من زخرفته وتزيينه بشتى النقوش الغائرة والبارزة ، والصـور الملونة (٤) التى

(١ ، ٢ ، ٣) احمد بك كمال بغية الطالبين الجزء الأول ص ١٦٧

(٤) يذهب بعض المؤرخين إلى ان المعبد الذى شيده مينا للاله بتاح كان صغير الحجم بسيط التركيب

تصور الإله بتاح وملائكته فى أوضاع مختلفة، تؤتى الملك النصر تارة، وتهب له القوة والعافية تارة أخرى، وتمثل الملك قابضاً على نواصى أعدائه مرة، وجائلا صائلا أو مصوبا سهمه ليطلقه على أعدائه، وقد بدأ عليهم الذعر، وشاعت فيهم دلائل الهزيمة مرة أخرى.

وانتهى المثالون من إقامة تماثيل الملك البانى — لما تم كل ذلك، شرع البناءون فى تشييد قصر الملك أو البيت العظيم (برعو) الذى حرفه بنو إسرائيل إلى لفظة فرعون، وأطلقوها على الملك نفسه. وعنهم نقلها العرب.

وكان البيت العظيم يبنى بحيث يشرف على النيل، وكانت له واجهة رئيسة فخمة ضخمة بها بابان عظيمان (١)، يمثل أحدهما مصر العليا، ويرمز الآخر لمصر السفلى، ولقد كان أحد بابى قصر الملك سنفرو العظيم — رأس ملوك الأسرة الرابعة، بناة الأهرام — يسمى «تاج سنفرو الأبيض المحترم على الباب الجنوبى، أما الباب الآخر للقصر نفسه فكان يدعى تاج سنفرو الأحمر المحترم على الباب الشمالى، وعرف وجه القصر الملكى وقتئذ بالوجه المزدوج» (٢)

وكان يطلق على قصور الفراعنة أسماء مستطرفة، وحذا الملوك فى كل العصور وكل الأقطار حذو الفراعنة، كالباب العالى، والحمراء، والبيت الأبيض، حتى فى هذا لم يشأ العالم أن يشذ فى الاقتداء بالمصريين القدامى أساتذة العالم ولا فخر.

ومما يؤسف له كثيراً أن فراعنة المدينة الطيبة، لم يتركوا لنا رسما أو وصفاً دقيقاً لقصر من قصورهم، ولم تبق عاديات الزمان أثراً لأحدهما نتخيله قصراً، قائماً أشم خليقاً بعظمة بانيه، وكافياً لإيواء أزواجه وبنيه، وحرسه وحواشيه، وغلمانه وجواريه نعم لقد سلم أحد قصور الدولة الوسطى حتى وصفه رحالو اليونان ثم زال، فلقد وصف هيرودوت قصر التيه أو اللابرنت وعدد غرفه فبلغت ثلاثة آلاف غرفة، غير الصالات القوراء والردهات الطويلة والمسالك الملتوية، التى بسببها سمى قصر امنمحيت الثالث بقصر التيه، لكثرة منحنياته وتشعب طرقاتها.

(١) كان يبنى قصر الملك أحيانا على شكل قصرين متلاصقين يخصص كل منهما لمصر من المصرين.

(٢) المستر جيمس برستد تاريخ مصر من أقدم العصور . . . ص ٥١

كما سلمت رسوم قصور لبعض نبلاء الدولة الوسطى ، تدل على أن دور الأشراف كانت تقام عادة وسط حدائق واسعة ملأى من الأشجار المثمرة ، والأزهار الملونة العبقة ، تخترقها طرقات ممهدة ، ومنسقة تنسيقاً هندسياً بديعاً وتجرى من تحتها جداول صغيرة تتسع فى بعض أجزائها فتصير بحيرات ترسو على ضفافها جوارصغيرة تزجى بمجاديف ، ليستقلها صاحب الدار أو أى فرد من أهله يرغب فى الترفيه عن نفسه ، إذا ما اعتراه ملل أو سآمة .

ويشرف على البحيرة كشك من الخشب المصبغ مهيأ لجلوس أهل البيت كلهم أو بعضهم ، إذا ما تاقت نفوسهم الى النظر الى الخضرة والماء ، والقبة الزرقاء ، وهم فى العراء وطلق الهواء .

وكان لبعض النبلاء الأثرياء غير الحديقة التى تحيط بدورهم بساتين متسعة على مقربة من المدينة ، وفى وسطها بحيرة كبيرة كالتى ذكرت فى قصة زوجة كبير مرتلى الملك نبكا وصديقها .

وكانت دورهم مكونة من طبقتين أو ثلاث ، تحتوى كل منها ردهات فوراء

قصر أمير مصرى

تحمل سقفها المزخرفة عمد جميلة الصنع ، تفنن المهندسون فى زينتها ، وبلغوا فى اتقان هندستها مبلغاً لم تدانه العمارة اليونانية فى أزهى عصورها . وتحف بالردهات عن اليمين وعن الشمال غرف متسعة ذات أبواب متقابلة جميلة الصنع والمنظر . وكان يخصص بعض الغرف للنوم وبعضها لتناول الطعام وبعضها لاستقبال الضيوف .

وكانت غرف تلك الدور وأبهاؤها مزدانة بالألوان ، ومحلاة بالنقوش والصور والرسوم ، التى ابتدعها فنانو مصر القديمة وبرعوا فيها أيما براعة .

وكان يحيط بالحديقة سور عالٍ فى جانبه الرئيسى واجهة الدار الرئيسية العظمى وبها الباب ذو الرتاج الكبير ، وكانت تشرف عادة على النهر .

وعلى مقربة من الباب الكبير كان يقام مبنى له شرفة ذات عمد تطل على الحديقة ، يستقبل فيه النبيل مواليه الذين يقومون بزرع ضياعه ، ويفدون عليه فى مواسم معينة ، يحملون إليه ضرائب عينية .

وإن من يزر مقبرة تاى أحد نبلاء مصر فى عهد الأسرة الخامسة (حوالى سنة ٢٥٥٠ ق . م .) والتى كشفت فى سقارة عام ١٨٦٠ م ير منظراً منقوشا على إحدى حوائط المقبرة يمثل تاى نفسه واقفاً يستقبل بعض مواليه ، يقدمون هدايا من الزهور والطيور والفطائر فى يوم عيد . ويرى فى منظر آخر ستا وثلاثين امرأة يحملن محصول ضياعه من لحوم وطيور وخضر وفاكهة ، ويقدمنه لسيدهن ، وقد كتب إلى جانب كل منهن اسم الضيعة التى جاءت منها .

وبجوار الدار كانت تبنى المخازن ، وبيوت الخدم ، وحظائر الحيوانات والدواجن . ومن أوصاف قصور النبلاء ومما كتبه هيرودوت عن قصر التيه ، ومما كان لمصر من ثراء ، ولملوكها من مقام يقرب من مقام الألوهية ، وما كان للمصريين جميعاً بوجه عام ، وللملوك بوجه خاص من شغف بالاستمتاع بمباهج هذه الدنيا وهناءاتها ولذاتها ، ولما كان لمعظم الفراعنة من بنين وبنات يعدون بالعشرات . من ذلك كله يسهل علينا تصور ضخامة برعو (قصر) ملك مصر واتساعه وكثرة

عرفه ، وعظمة أبهائه ، وجمال ألوانه وزخارفه ونقوشه ، وتعدد أجنحته التي كانت تخصص للغلمان والجواري ، والحراس والفرق الموسيقية التي كانت تشنف أسماع سيد البلاد الأول في أوقات معينة ، وفي أثناء تناوله الطعام بخاصة ، وللراقصات والمضحكين والخدم والأتباع على اختلاف أعمالهم[1] » حتى ليصح لنا أن نقول إن هذا القصر كان أشبه بالمدينة منه بالقصر » .

وانا نستنبط من قصة الملك سنفرو (٢) الذي زعموا أنه شعر بضيق في صدره ذات يوم ، فاستدعى أحد الحكماء (زازا مانخ) وكان فوق علمه ساحرا ماهرا فأشار على الملك بأن يؤتى بعدد من الجواري النهد الأبكار ، ويلبسن أثوابا مصنوعة من الشباك المصبغة ، وينزل الملك في إحدى الجواري المنشآت في بحيرة القصر ، وتنزل معه أولئك الجواري ، وتمسك كل منهن بمجداف ، ويحرين الجارية بمجاديفهن التي تتحرك على صوت نغمات الحادية ذات الصوت الرخيم . . .

فلا يلبث الملك العظيم أن يسرى عنه مايجده من الضيق والحرج . . . إلى آخر القصة (٣)

نستنبط من هذه القصة أن حديقة برعو الملك كانت أضعاف حدائق النبلاء في المساحة وإن بحيراتها أو بحيرتها تبز بحيرة حدائقهم في العظم والاتساع ،

---

(١) محرم كمال . تاريخ الفن المصري القديم ص ٢٦
ويقول المؤلف نفسه ص٣٧ عن خدم الملك وسراياه مايأتي : — كان يقوم بخدمة الملك وحده زهاء ثلاثين أو أربعين فرقه تختص كل واحدة منها بعمل معين — فهناك فرقة (أصحاب اليد) الذين يعنون بيد الملك وصيانتها وتقليم أظفارها . . وحامل النعل ، ومرجل الشعر ، وغسال ، وطبيب خاص هناك فرقة العطارين ، وهي المنوط بها حفظ أعطار الملك وتضميخه بها ، وفرقة (أصحاب التيجان) وهم الذين يقومون على حراستها ، وأعدادها للمناسبات ، وفرقة (أصحاب الثياب) وهي تنقسم الى فروع ، فرع يعنى بحفظ القماش الذي يخاط منه الملابس ، وفرع عمله خياطة الثياب ، وفرع مهمته غسل الثياب والمحافظة عليها . .
وهناك فرقة لايخلو أمرها من غرابة ، هذه هي فرقة السحرة .

(٢) وترجح الظن بأن إقامة القصر الجديد تبدأ بعد عيد سد وهو فاتحة عهد جديد !

(٣) انظر القصة كاملة

وأنها كانت تتخللها الجداول وربما كانت تتصل بأحراش لصيد الملك وقنصه .

ولقد كانت من عادة فرعون مصر ألا يسكن قصر من سبقه ولو كان أباه أو أخاه ، فكان يعمد إلى جهة يختارها فى العاصمة أو على مقربة منها ، وتقع عادة على شاطىء النيل أو على ترعة تتفرع منه ويأمر ببناء قصر له فيها فى وقت وجيز وسرعة قصوى . . .

على أن هذه العجلة لم تكن بمانعة أيامهم من أن يزينوا قصورهم أجمل زينة ، ويضفوا عليها ماشاءوا من الروعة والبهاء . . .

وثم شىء آخر . . كان يلحق بقصر الملك — بل يكاد يكون جزءا منه — مساكن أبنائه وبناته . . . .

الفصل الرابع

عود على بدء

ولقد كانت أيام القلعة البيضاء، التى استبدلت باسمها (من — نفر) (ممفيس) كأيام كل كائن حى، وغير حى، سعود ونحوس، ونعيم وبؤس، ورفع وخفض، وبسط وقبض، وإقبال وإدبار، وإذواء وإزهار. فلقد بدأت قرية صغيرة، ضئيلة الشأن، خاملة الذكر، لا تسترعى انتباه احد، ولا يأبه لها أحد، فقيض الله لها (مينا) الملك الفاتح، موحد المصرين، فاجتباها مقعدا لتاجه، ودارة لملكه، سنة (٣٣٠٠ ق م) على وجه التقريب. وحصنها بالقلعة البيضاء، المشهورة بالجدار الأبيض واحتفل فيها احتفالا مهيبا، دعا إليه أمراء مصر المتحدة تخليدا لهذا الاتحاد الميمون. فكان يوما من أيام مصر البيض الخالدة، ثم جعله سنة متبعة له، ولمن جاء بعده، من الملوك، يحتفلون بهذه الذكرى كل عام، فيحجون إلى تلك القلعة مطوفين معيدين (١)، فنبه بذلك ذكرها وتألق نجمها وهوت إليها أفئدة من الناس فاتسعت رقعتها وامتد عمرانها. ولكن خلفاء (مينا) لم يتلبثوا بها إلا قليلا حتى أخذت نفوسهم تصبوا وعيونهم ترنو إلى الجنوب حيث نشئوا وقضوا مآرب للشباب هنالك تجتذبهم إليه ذكريات محببة إلى قلوبهم، مرغبة إلى نفوسهم فهجروها إلى الجنوب.

ومن أشهر الملوك الذين عنوا بأمر القلعة البيضاء الملك نترإن (ويكتب أحيانا نتريمو) إذ يؤثر عنه، أنه أول من عنى بأحفال أعيادها وبخاصة حفل عيد الإله حور والإله سوكر ونظم الإحصاء العام.

وهو الذى سن « قانوناً أجاز فيه للنساء الجلوس على العرش، منعاً لخروج

(١) الدكتور أحمد بدوي — فى موكب الشمس — الجزء الأول ص ٤٣



منق أمام منزله

الملك من الأسرة المالكة ، ولقد فسر « دوروجيه » القانون بأن الملك إذا مات وكان له بنون وبنات، كان بنوه أحق بالملك من بناته ، أما إذا لم يكن له بنون وكانت له بنت أو أكثر ، كانت بناته أحق به من أقرب الذكور إليه (١) .

ويلوح أن (نترإن) أول فرعون ادعى أنه من سلالة الآلهة وأن (دماء المعبودات سرت فى عروقه وبذا جعل لنفسه السلطة المطلقة على سائر رعيته ، ولقب نفسه بابن الشمس معبودتهم ، ليثبت لنفسه ولمن جاء بعده من الملوك وشائج القرابة بينه وبين المعبودات) (٢) .

ويرجح بعض المؤرخين ، الراسخين فى تاريخ مصر القديم ، أن الملك (برايب سن) أحد ملوك الأسرة الثانية أول من هجر (من — نفر) ونقــــل حكومته إلى (ثن) أو (طينة) . ويرى البعض الآخر أن هجرته كانت إلى (نخن) لأن (ثن) لم تكن يوما ما مقرا للتاج ، إنما كانت بلدا لمقابر (نخن) شأنها فى ذلك شأن سقارة بلد المقابر لمدينة منف .

وقد يسأل سائل كيف كانت (ثن) أو (أب جو) (أبيدوس) بلد المقابر لنخن مع بعد الشقة بينهما (٣) ، على حين كانت بلاد المقابر أو الأموات لا تبعد عن مدن الأحياء غير بضعة (كيلو مترات) ، ويضرب لذلك مثلا (من — نفر) وسقارة وطيبة ومقابر ملوكها وملكاتها وأمرائها .

والجواب على ذلك ، أن (أب جو) أو إبدو كانت مقر (أوزير) الأخير أو مثوى رأسه المقدسة فى رواية . وأوزير معبود الأموات ، ورئيس عرصة الحساب وقاضى قضاة يوم القيامة ، فمن شاء سلكه فى سقر ولا يبالى . فكان الموسرون

---

(١) احمد كمال باشا العقد الثمين ص ٢٣

(٢) احمد كمال — العقد الثمين —

« ذكر مانيتون أن الملك سن كان محترما لعهد إلى عهد الاغريق ، وأنه أتم الرسالة الطبية التى وجدت فى مدينة سخم »

أحمد كمال — العقد الثمين ص ٢٣

(٣) المسافة بين نخن وآب جو نحو مائتى كيلو مترا

يوصون بأن تحمل جثثهم بعد تحنيطها إلى جواره ، التماسا للبركة والرضا والغفران .
فكانت تمكث تلك الجثث مطمئنة إلى جوار مالك يوم حسابها تنفيذا لوصية أصحابها قبل موتهم ، ثم يرجعون بها إلى حيث توارى فى المقابر المعدة لها فى بلد أمواتهم . أما الفقراء والمساكين فيوصون بأن ترسل تماثيلهم اقتصادا فى النفقة ، فإن عجزوا فتمثال لأوزير ليدفن معهم فى قبورهم اعتقادا منهم أنهم بهذا أو ذاك (يتحدون مع أوزير ليرشدهم ويهديهم فى دار السعادة الأبدية . وبحسن إرشادهم وهدايتهم يصلون إلى الحياة السرمدية)

فليس بمستغرب على قوم هذا مبلغ اعتقادهم أن يدفنوا أموات نحن فى قبور آب جو على الرغم من بعد الشقة بينهما .

ولم يكتف « برآب سن » بتغير مقر ملكه ، بل غير إلهه الحامى . إذ استبدله عبادة ست بعبادة الإله حور وحذف اسم حور من أسمه ، واستبدل به اسم ست ، فأصبح اسمه الملك « ست رآيب سن» بعد أن كان الملك حوربرآيب سن .

والملوك لايغيرون حواضرهم وآلهتهم عفوا أو عبثا ، ولا يلجئون إلى مثل هذا الانقلاب إلا لأمور جُلّى أو أسباب خطيرة تدفعهم إلى ذلك دفعاً ، وبخاصة إذا كانت الحاضرة أحسن موقعا وأجود جوا ، وأطيب لذلك مقاما .

فهل تبرم الملك بنفوذ كهنة منف أو لم تعجبه شعائر دينهم أو لم يرقه ترك دين آبائه وأجداده ليعبد حورس الذى كان من قبل إله أهل الشمال ، فثار على الأوضاع التى رضيها آباؤه الأقربون ، وفعل مافعله أخناتون بعده بنيف وستمائة وألف سنة .

ولكن شتان مابين الثورتين — إذا عددنا مافعله (برآيب سن) ثورة — فثورة (برايب سن) ثورة رجعية ، فيها رجوع إلى ما كان عليه أجداده الأولون . أما ثورة أخناتون ، فثورة إبراهيمية (٢) : أى ثورة رجل رفض أن يلغى عقله ليتبع

---

(١) أحمد باشا كمال « بغية الطالبين » . الجزء الأول ص ١٧٧ — ١٨٥ »

(٢) نقصد ثورة سيدنا ابراهيم على عبادة الأصنام

ملة أبيه وجده ، ثورة رجل أصر على البحث عن الحقيقة ، فلما ظن أنه وجدها سافرة باهرة ، تعلق بها ونسى كل ماخالف آيتها .

وقد يكون السبب فى هجرة (برآيب سن) أنه رأى أن الحاضرة الجديدة أقرب إلى مصر السفلى عدوة الأمس ، ولما لم يتوطد ملك الجنوبيين فيها بعد ، رأى أن أدنى ماتوحى به الفطنة الحربية والحكمة السياسية ، أن يهجرها إلى بلد يشعر فيها أنه مطمئن إلى جوار أهله ، ورماح ذويه .

وقد يكون السبب أنه قد ضاق ذرعا بتغلغل نفوذ أهل الشمال فى كثير من شئون الدولة ، وغلبة آرائهم الدينية ونظمهم الاجتماعية على سكان الحاضرة الجديدة.

وليس ذلك ببدع فى التاريخ ، فقد كان أهل الشمال كما قدمنا أرسخ قدما فى الحضارة من أهل الجنوب الفاتحين ، وكثيرا مافرضت الحضارة الراقية للمغلوب نفسها على الغالب فرضاً . ومهما يكن من أمر الملك (برآيب سن) وأسباب هجرته إلى الجنوب ، فقد ظل خلفاؤه فى نخن يختلفون إلى منف الفينة بعد الفينة ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يؤمون منف فى أشهر القيظ ، التى تشتد فى أثنائها الحرارة فى الصعيد الأقصى ، حين كانت تتجرد أرضه إلا أقلها من كل نابتة تسقى من جدول أو عين أو ساقية ، وفى إبان الاحتفال بأعياد منف ، التى كان الفراعنة فى جل العصور يحرصون على حضورها .

وفى عهد (برآيب سن) وخلفائه تخلت « من — نفر » لنخن عن مركز الصدارة وأبهة الملك ، فنبه اسم (نخن) ومال إليها الناس وأمها أمراء الولايات ومنهم أمراء مصر السفلى ، والذين لم يسبق لكثير منهم زيارة الجنوب ، فكان لهم علما ، وكانوا لأهل الجنوب فرجة .

وسرعان مانمت (نخن) وامتدت أطرافها . ودبت فيها حياة جديدة لم تعهدها من قبل . ولا بدع فقد أصبحت مقعد تاج جباجبا دنياها .

أما (من ــ نفر) فقد أضمحلت وقل شأنها وأصبحت مقر الحامية قوية من جند

الجنوب فحسب. ولما أن أدال الله الأسرة الثانية، ابتسمت الأيام (لمن ـ نفر) كرة أخرى وعادت إليها الدنيا فأحنت لها رأسها، وجاءتها السيادة منقادة، وانتقل إليها مقعد تاج مؤسس (١) تلك الأسرة المجيدة، وأصبحت بذلك حاضرة لملك موطد الأركان، عالي البنيان، يعز على من رامه، ويطول على من طلبه. ملك لم يؤده شيء أراده، ولم يمتنع عنه أمر حاوله فسارت (من — نفر) مرة أخرى بخطى واسعة مديدة نحو قمة المجد، وغفلت عنها عين الدهر الحاسدة، نحو ألف سنة، تزيد أو تنقص قليلا، ساد مصر فى أثنائها اليسر والرخاء، وشملها الأمن والهدوء، وشعر المصريون فى إبانها بالعزة والمنعة والكرامة.

وإذا ما أمن الناس، واطمأنت بهم الحياة، أخصبت قرائحهم وجادت، وسمت أفكارهم وبرعت أيديهم وافتنت وأبدعت، فلا بدع إذا أزهر الأدب وتفتحت أكمامه، وازدهرت فنونه، وتنوعت مقاصده، وارتفعت مكانة الأدباء. وقد كان نثرهم جزلا رصينا، يسوده الجناس والاستعارة والتورية وإيراد الحكمة وضرب الأمثال، وكان شعرهم فخلا طنانا، يغلب عليه اللحن والخيال. وقد راجت القصة فى ذلك العصر الزاهر ونفق سوقها، وكثر عشاقها. وكانت محبوكة الأطراف، مهذبة الحواشى، يعتمد معظمها على الخوارق والمعجزات وسحر الساحرين.

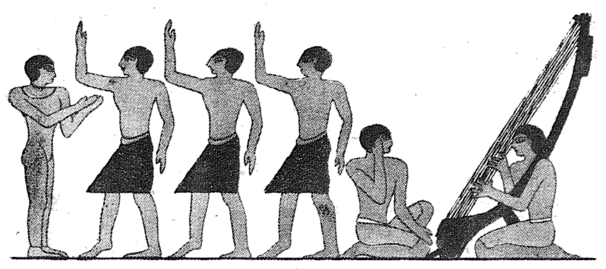
وقد أقبل الناس على سماع تلك القصص، وطلبوا القصاص فى كل مكان. وعمرت بهم مجالس الملوك(٢) والأمراء وعامة الناس على السواء. وقد تطورت القصة من الحكاية إلى المحاكاة فنشأ فن التمثيل، الذى قام به الكهنة أول الأمر، ومن

---

(١) ويروى أحمد باشا كمال عن مؤسس الأسرة الثالثة حادثا أشبه بما يروى عن معجزات بعض انبياء بنى اسرائيل، وفى ذلك يقول «أول هذه العائلة الملك نخروفس، وفى مبدأ حكمه حدث اضطراب عظيم أدى إلى عصيان سكان الصحراء الذين كانوا تحت طاعة ملوك مصر من عهد (منا) وتظاهروا عليه بالعدوان، واصطف الفريقان للقتال فى ليله قمريه، فرأى الأعداء أن دائرة القمر قدا تسعت زيادة عن عادتها، وظنوا أن الله قدغضب عليهم لعدوانهم على الملك فبادروا بالطاعة له». العقد الثمين ص ٢٥

(٢) أنظر قصة الملك خوفو وأولاده بترى وسليم بك: قصص

أشهر القصص الجميلة التي كان الـكهنة يقومون بتمثيلها فى المعابد أمام عباد آلهتهم الصالحين ، قصة أوزير وإيزيس وست وحور ، تلك القصة العظيمة الخالدة ، التى جسمت الخير كله فى شخص أوزير ؛ والشر كله فى شخص ست ، والحب والوفاء فى شخص إيزيس ، والحق والعدل فى شخص حور .



الرقص والغناء

ولقد رقت الموسيقى . وكثرت آلاتها . وتنوعت ، وأتقن صنعها وأنشئت الفرق الموسيقية المنظمة[١] ، واعتلى الملحنون صهوة الفن ، فوضعوا الألحان الحلوة المشجية . التى امتازت بالهدوء والاتزان والسهولة والاعتدال وخفة الوقع على الأسماع [٢] .

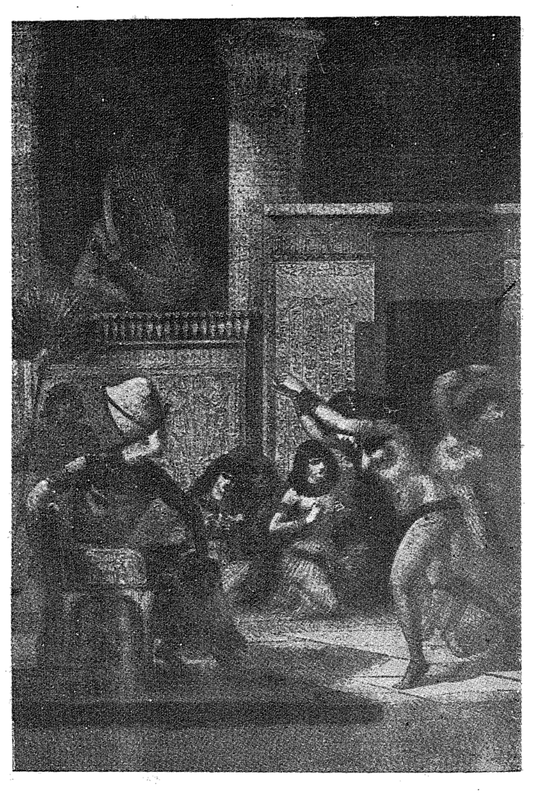
واتقن فن الغناء ، وكثر المغنون ، وكان مقامهم عاليا ، لانهم لم يكونوا من الطبقات الدنيا ، بل كان كثير منهم يمتون إلى البيت المالك بصلة القرابة ، وحرص المغنون

---

(١) يقول الدكتور الحفنى فى كتابه — موسيقى قدماء المصريين عن الفرق الموسيقية فى الدولة القديمة مايأتى « ان تلك الدولة اتخذت فى تكوين فرقها الموسيقية نظاما معينا ، إذ كان يتوافر فى فرقتها دائما ثلاثة عناصر أساسية ، هى المغنى والعازف بالصنج والعازف بالناى ، وقد يتكرر أفراد كل نوع من هذه الأنواع الثلاثه ، حتى لترى فى بعض الصور مالايقل عن ثمانية من العازفين على الناي وحده يعزفون معاً فى فرقة واحدة ، وذلك على الرغم مماهو معلوم من أن النقوش تمثل الحقيقة بشكل مختصر »

(٢) وصف أفلاطون الموسيقى المصرية بأنها أرقى موسيقيات العالم ، وأنها تجمع النشاط والجمال ، وحلاوة النغم ، ودقة التعبير ، ولهذا اقترحها لبلاده ولجمهوريته .

فى أغانيهم على مدح الآلهة والملوك ، والحض على البذل والعطاء ، وإطعام الطعام
والحث على ألا ينسى الإنسان نصيبه من حرث الدنيا ، بل يستمتع ببهجة الحياة



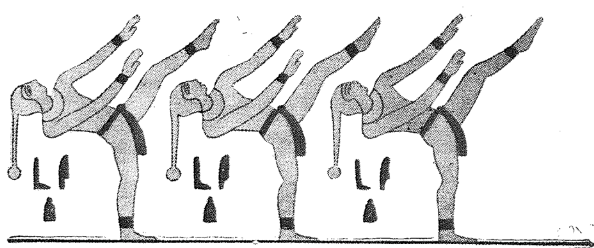
الراقصات فى حضرة فرعون

ما وسعه الاستمتاع ، فيشرب ليطرب ، ويلهو ويلعب ، وألا يأس على شىء لم

يدركه ، وأمل لم ينله ، وألا يبيت مغيظا محنقا ، وأن يذكر الموت وغصته ،والقبر ووحشته ، وألا يغتر بالدنيا وزخرفها [١] .

وأصبح الرقص فنا جميلا (أدرك المصريون جميعا — ملوكهم وسوقتهم على السواء — مزاياه ، فأسعدوا به مجالس أنسهم ، وأحيوا به مسرات حياتهم ، غير مسرفين ولا مفحشين ، بل كسبوا المتعة وصانوا الحياة [٢])

وكانت الراقصات يرقصن جماعات رقصا رشيقا نشيطا ، يشبه الرقص الذى يسميه الغربيون باليه (Ballet)



راقصات فنيات

أما فن النحت فقد بلغ فى « من — نفر » ذورة المجدوقمة الكمال ، وإن التماثيل التى صنعها فنانو ذلك العصر الذهبى [٣] ، والتى سلمت من عبث الإنسان وعاديات الزمان ، كتماثيل الأميرة « نفرت » والملك « خفرع » وشيخ البلد « وأبى الهول »

---

(١) ومن هذه الأغانى نقلا عن كتاب موسيقى قدماء المصريين . .

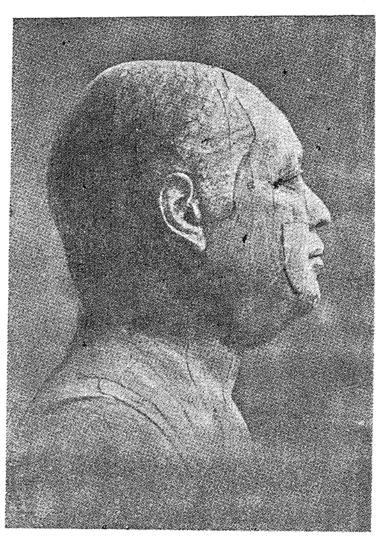
أين من شيدوا القصور وعمروا المدن ؟ كيف كانت عاقبتهم !

وماذا كان مصير مدنيتهم ؟ لقد انهار البناء ، وعفت المدنيه : وانقطع مابين أهل الدنيا وبين الآخرة ، فلم يرجع منهم أحد ينبئنا بما فيه ، وماذا يصنعون فتطمئن قلوبنا . . .

(٢) الدكتور الحفنى — موسيقى قدماء المصريين .

(٣) لقد كان هذا العصر عصر نضوج بلغ فيه جمال الفن وقوته الذروة القصوى . ففيه أخذت أشـــكال الرسم تندمج وتتركز فى أوضاع ملأى بالصلابة ذات طراز قوى دون أن تفقد صلتها فى معظم الحالات بنموذجها الحى ، وهى أوضاع يظهر أن مثلها العليا كانت من القوة والهدوء بحيث أصبحت من فرط ثقتها بنفسها قادرة على التعبير ببساطة قصوى بلغت مرتبة الكمال » دريتون .

لتثبت أن الفن الذى أنتج هذه التحف العظيمة المنحوتة من أنواع الصخر الصلد هوفن كامل « سيد نفسه معتز بأسلوبه وانتاجه [١] » كما يثبت وجود مدرسة قوية فى ذلك الوقت تعددت دور التكوين ، ووصلت إلى درجة كبيرة من الاتقان ، تلك هى مدرسة (من — نفر) قصبة الملك وعاصمة البلاد [٢] .



شيخ البلد

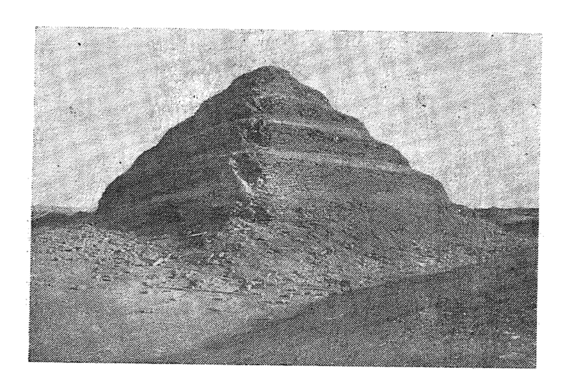
وقد تقدمت الصناعة فى (من — نفر) فى ذلك العصر تقدما عظيما ، وقامت فيها صناعات عرفت بها ونُسبت إليها كصناعة الحلى والتماثيل الذهبية ، التى كانت تصنع من الذهب ، الذى كان يستخرجه المصريون من الهضبة الشرقية ، أو يحمل إليهم من بلاد النوبة خراجا وكصناعة النحاس المستخرج من مناجم شبه جزيرة سينا ، ومنه كانت تصنع التماثيل والآلات والعدد وبعض الأوانى . وكصناعة المرمر المجلوب من مناجمه بمصر الوسطى ، وقد برع فيه المنفيون ، وبلغوا به شأوا لم يبلغه أحد قبلهم ولا بعدهم . ومنه كانوا يصنعون تماثيل الآلهة والملوك ، والأوانى الجميلة التى تبين عن دقة فى الصنع ، ورقة فى الذوق ، وحسن فى التنسيق ، الى آخر الصناعات الكثيرة التى قامت بها واتقنها صناعها الماهرون ، كصناعة اللبن والقيشانى الملون [٣] .

(١) محرم بك كمال — تاريخ الفن المصرى ص ١٢١ (٢) المؤلف نفسه .

(٣) لقد عثر على مقبر لزوسر ، منحوته فى الصخر ، وقد ازدانت بعض غرفها بألواح من القيشانى الأخضر والازرق أنظر ص ١٦ رحلة إلى منف وسقارة للأستاذ محمود درويش

والتجارة والغزل والنسيج والصباغة ودبغ الجلود وصنع الأحذية والورق والنبيذ وتجفيف السمك والحفر فى الخشب والمعادن وبناء السفن .

أما الفن الذى ابتدعته منف ونبغ فيه نفر من أبنائها نبوغا عظيما مفاجئا كأنه من وحى السماء ، وحسبه عظما أنه لا يزال مثار دهشة العالم الحديث وإعجابه ، فهو فن العمارة، وبخاصة عمارة الحجر [١] ، الذى بدأ فجأة فى عهد الملك زوسر، بانى الهرم المدرج ، ذلك البناء الضخم العجيب ، الذى يعد أول بناء من نوعه ظهر فى الوجود .



الهرم المدرج

ويعزى تصميم ذلك الهرم إلى الوزير أمحتب ، ذلك المهندس النابغة ، الذى لم يكن نبوغه فى الهندسة فحسب ، بل فيها وفى الطب الذى من أجله رفعه المصريون

(١) لقد كان الحجر فى متناول يد سكان مصر العليا والوسطى ، ولكن صنع اللبن كان سهلا ميسورا ، ومادته الخام تحت أقدامهم ، فكن البناء به أقل نفقة ، فليس غريبا أن يسبق عصر البناء به عصر البناء بالحجر . أما فى الدلتا وبخاصة أجزاؤها الشمالية ، فكان الحجر بعيدا عنها فاعتمدت فى جميع العصور على اللبن وربما كان هذا السبب فى زوال معابدها .



امحتب العالم المهندس الطبيب

إلى مصاف الآلهة(١)، والذى عرف قدره علمـــاء الإغريق فاضفوا عليه لقب خالق عمارة الحجر وأول حكماء الدنيا وطبيب العالم الأول.

وإن المبـــانى الحجرية الأخرى، التى بنيت فى عهد الملك زوسر، وكشف عنها أخيراً (تضع المهندسين الذين وضعوا تصميمها فى أعلى مراتب الشرف والعلم، وكذلك تشهد للعمال الذين قاموا بتنفيذهـــا بالمهارة. ولا ريب أن هذه المبانى لأول

(١) يقول الرحالة جان كابار فى كتابه منفيس عن امحوتب ما ملخصه فيما يلى: وإذا صدقنا الروايات التى كانت تروى عنه، والتى استمرت الى عهد الاغريق فانه كان يوضع فى مصاف الآلهة، تقرب له الملوك القرابين، وأنه ابن الاله فتاح والالهة سخمت، ذلك على الرغم من أننا نعرف أسماء آبائه وأجداده من البشر . . . وكان يعبد أمحوتب فى معبد بسقارة على مقربة من السرابيوم . . . وكان له معابد خاصة فى الفنتين وبلاد النوبة

خطوة انتقال فى تاريخ فن المعمار فى تعميم البناء بالأحجار فى وادى النيل ، الأمر الذى سهل زخرفها فظهرت العمد المضلعة ، المزخرفة بزخارف نباتية ، والتى نقل عنها الإغريق ، بعد بضعة آلاف من السنين ، العمد التى أطلق عليها العمد الدوريكية .)[1]

ولقد شاهد الرحالة جان كپار آثار هذه المبانى فاعتراه الدهش فكتب يقول « إن من يراها يدهش ويسأل نفسه هل هذه مبان مصرية أنشأها مصريون بأيد مصرية فالعمدان إذا رأيتها خيل إليك أنها آتية من بلاد الإغريق ، بدعها الذين بدعوا البارثنيون . ولقد حسب المنقبون حين رأوها أول مرة أن تلك المبانى

الملك زوسر

أعيد بناؤها فى العهد الإغريقى ، ولكنهم لم يلبثوا أن أيقنوا بمصريتها حين قرأوا ما عليها من كتابات وتوقيعات نقشها زائرون يرجع عهدهم إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، أى العصر الذى بلغت فيه مصر أوج عظمتها ، ولم يكن الإغريق فيه إلا قبائل بدائية . وقد وضح من غير شك أن تلك العمد قد صنعت بأيد مصرية فى بدء الأسرة الثالثة ، وأن الأغريق قد نقلوا عنها فنهم الذى نسب إليهم بعد ذلك بمئات السنين »[2]

(١) الاستاذ سليم حسن بك — مصر الفرعونية الجزء الاول ص ٢٧٩ بتصرف .

(٢) جان كپار : ممفيس

ولت الأسرة الثالثة ، وسجل لها التاريخ فخر إنهاضها الأدب والفنون والعلوم والصناعات ، وبخاصة فن البناء بالحجر ، وذهبت وذهب معها جل ما امتاز به عصرها من جمال المظهر والرونق والرواء والزخرف والطلاء .

وأديل من تلك الأسرة العظيمة أسرة أعظم وأحرى بالخلود ، تلك هى الأسرة الرابعة .



هذه الأعمدة كانت وحيا للعمد الدوركية

وأول ملوك الأسرة الرابعة الملك سنفرو[١] . ولا يعنينا كيف سلك طريقه إلى العرش ولا الأسباب والصلات التى تربطه بالأسرة الدائلة ، ولكن يعنينا أنه لم يتخذ منف حاضرة ملكه فى السنوات الأولى من سنى حكمه ، بل أنشأ حاضرته فى ميدوم عند مدخل واحة الفيوم . ولعلها كانت قائمة على فرع النيل الذى أطلق عليه اسم « بحر يوسف » بعد أن ثوى سنفرو بآلاف السنين . هذا إن صدق قول

(١) آل العرش إلى سنفرو عن طريق الزواج ، إذ تزوج إحدى بنات آخر ملوك الأسرة الثالثة الدائلة .

من يرى أن بحر يوسف فرع طبيعى للنيل ، شأنه فى ذلك شأن ترعة السوهاجية [١]

ولا نعرف على وجه التحقيق السبب فى إعراضه عن منف واتخاذه ميدوم حاضرة له ، فقد تكون العلة فى ذلك قرب الحاضرة المختارة إلى مسقط رأسه ومناطق نفوذ أهله وعشيرته . ولعله قد رأى التجهم والقلى باديين على وجوه أمراء منف وعظمائها ، وبخاصة غيره من أصهار البيت الدائل ، أولئك الذين كانوا يطمعون فيما آل إليه . وقد تكون امتدادا لفكرة إعراض الخلف من الملوك عن اتخاذ قصور السلف مسكنا ومقاماً .

وعلى مقربة من حاضرته الجديدة ، وعلى ربوة مشرفة على الوادى الخصيب ، شيد هرمه الأول ومعبده .

ولم تلبث الحاضرة الجديدة أن امتدت شمالا ، كأنها تبغى الاتصال (بمن-نفر) حتى شمات دهشور .

ويظهر أن الملك سنفرو لم يرض عن هرمه الأول ، فأراد أن يبنى خيراً منه ، فشيد هرمه الثانى ، فجاء أجل وأبدع وأروع من سابقه ، جاء هرما كاملا ولعله الأول من نوعه . ويرجح أن سنفرو استخدم فى بناء هرمه أسرى حروبه ، الذين بلغوا فى حملة واحدة ٧٠٠٠ أو يزيدون [٢]

ولقد أطلق سنفرو اسم هرمه الثانى (نور سنفرو) على المدينتين (ميدوم ودهشور) اللتين نمتا فى عهده وامتدتا حتى اتصلتا ، وأصبحتا مدينة واحدة . شهدت أحفال النصر ، التى كانت تقام عند مقدم الملك المظفر عائداً من الجنوب ، يجرر أذيال النصر ، وتساق خلفه سبعة آلاف أسير ومائة ألف من الأغنام . وعند رجوعه من طور سينا بعد أن دوخ قبائلها الثائرة ، وأذلهم وأدبهم أدبا صار بعد ذلك

(١) السوهاجية وبحر يوسف ترعتان قديمتان ، ويرى بعضهم أنهما طبيعيتان ، أى فرعان من فروع النيل . ويستدلون على ذلك بكثرة تلويهما وتعرجهما ، تعرج الأنهار ، على حين يرى البعض الآخر أنهما صناعيتان ، قام المصريون القدماء بحفرهما متعرجتى المجرى ، ناحين فى ذلك منحى الطبيعة ، ولأجل هذا لا يظهران كما تظهر الترع الصناعية الأخرى .

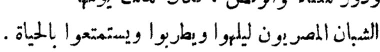
(٢) سليم بك — مصر القديمة جزء ٢ ص ٣٣ .

مضرب الأمثال ، أو رجوع الأسطول البحـــرى من سواحل سوريا محملا بخشب الأرز الذى جىء به من صفحات جبال لبنـان ، لاستعماله فى تشييدقصر الملك العظيم [١] .

ولقد هجر سنفرو نوره فى أواخر أيامه ، واتخذ منف حاضرة له . ولعله لم يطمئن إلى جوار أمراء منف إلا حين كثر جنـــده ، وعز نصره ، وشاعت فى الناس هيبته .

وسعدت منف بقدوم سنفرو وحكومته ، وامتدت مبانيها على ضفة النيل ، وزخر ميناؤها بالسفن المصرية والأجنبية . وسارع التجار الأجانب إلى بنـــاء الدور والمخازن التجارية ، وأقام بعضهم معابد خاصة بهم . ولقـد خصت كل نحلة بحى خاص بها .

ولقد كانت الأحياء الأجنبية أكثر مرحا، وأعلى صخبا ، لما كان فيهـــا من حانات ودور للغناء والرقص ، فكان لذلك يؤمها الشبان المصريون ليلهوا ويطربوا ويستمتعوا بالحياة .



سنفرو يخضع أهل سينا

أما الأحياء المصرية فكانت تبدو هادئة وقورا ، لاصخب فيها ولا صياح ، لمحافظة المصريين فى ذلك العهد الغابر على الآداب العامة محافظة شديدة .

(١) « تدل النقوش حتي الآن على أن أول أسطول بحرى عرف فى تاريخ البشر يرجع عهده الي الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة . اذ يخبرنا حجر « بلرمو » أنه فى عصر هذا الملك قد جاد من بلاد سوريا أربعون سفينة محملة بخشب عش (الأرز) — وفى مدى عامين — كما جاء فى هذا الحجر نفسه — قد صنعت عدة سفن يبلغ طول كل منهما نحو مائة ذراع من خشب (مر) الذي كان يجلب من لبنان هذا عدا ستين سفينة أقل حجما : سليم حسن بك — مصر القديمة — الجزء الثانى ص ٢٢٦

الفصل الخامس

ودع سنفرو ألقابه الكثيرة (١)، وملكه الواسع الموطد وعباده المخلصين(٢)، وودعت (من — نفر) معبودها المحسن(٣)، بقلوب ملؤها الأسف والأسى والحزن، ثم استقبلت خلفه العظيم بصدور منشرحة، وثغور باسمة، ولسان حالها يقول ما كان يقوله الفرنسيون، حين كانوا يودعون ملكا، ويستقبلون آخر، «عاش الملك! فليحيا الملك!»

وأخذت (من — نفر) بعد أن خلعت ثوب الحداد — زخرفها وازينت، استعدادا لاستقبال عهد جديد. ولا بدع! فالناس يميلون إلى الترحيب بكل تغيير مهما كان نوعه. وبدأ المهنئون يفدون عليها من كل صوب، فاكتظت بهم، واستهوتهم الفرجة على حفل التتويج القادم، فأطالوا مكثهم في الحاضرة العظيمة، يرتادون مسارحها وحاناتها، وبخاصة ما كان منها في الأحياء الأجنبية، لما فيها من مرح ساهر، وصخب ساكر، لا يجدونه في قراهم المحافظة، ولا في أحياء الحاضرة الوطنية.

وجاء يوم التتويج.

وبكر الدهماء ينسلون إلى الشوارع والطرق التي اعتاد الركب الملكي أن يمر بها في أحفال التتويج، وعلا أصحاب الدور المطلة عليها، ومعهم جم غفير من أقاربهم وأصحابهم الأدنين شرفات دورهم وسطوحها، وأم أرهط من الكهنة معبد فتاح غداة ذلك اليوم المشهود، في أثوابهم الرحيضة، وقد حلقوا رءوسهم، واصطفوا

---

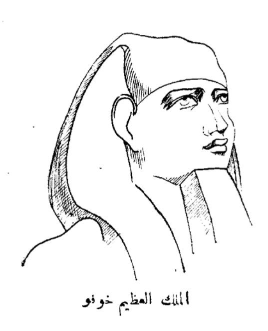
(١) نقش سنفرو العظيم ألقابه على صخرة في وادي مغارة وهي — الحاكم وصاحب التاجين والمنصور والظافر، ملك الوجه القبلي والبحري وابن الشمس (أحمد كمال — العقد الثمين ص ٢٧).

(٢) قال دوروجيه — وحبه (والهاء تعود على سنفرو) لدى رعيته ومدافعته عن بلاده عكف على عبادته المصريون بعد وفاته واستمروا على عبادته واحترامه إلى عهد البطالسة — العقد الثمين —

صفوفا متراصة فى البهو الكبير . وبرز أمامهم حملة المباخر ، ووقف نفر من كبار الكهنة — وقد ارتدوا ملابس على هيئة آلهة مصر العظام — أمام منصة مرتفعة ، مغطاة بمنسوج مبرقش ، يرقى الراقى إلى أعلاها بدرجات عدة ، وعلى تلك المنصة عرش عظيم .



وفتح باب القصر ، ونفخ فى الصور نفخة واحدة ، إيذانا باستهلال الإله الطيب . فتحركت الجموع المحتشدة على جانبى الباب حركة لاشعورية ، سرت سريان البرق فى الجموع المرصوصة على جانبى الشارع ، الممتد بين القصور والمعبد ، وخرج الركب الملكى من الباب العالى ، وسار على تعبئة حسنة ونسق معلوم : فكان يتقدمه النافخون فى الأبواق والمزامير ، والدقون على الطبول ، والناقرون على المزاهر والدفوف ، والمغنون والمرتلون . وجاء بعدهم الأمراء ، ثم كبار الكهنة يتقدمهم المرتل الأعظم ، وتلاهم حكام الأقاليم وعظماء الدولة ثم جاء ولى العهد فى أحسن بزة ، يتلوه الملك محمولا على محفة من خشب الأبنوس ومطعمة بالذهب الوهاج ، يحملها اثنا عشر ضابطا من ضباط الجيش ، وقد حلوا رءوسهم بريش النعام ، وكان يحف بالمحفة نفير من ولد الكهنة ، حاملين سلاح الملك وشاراته وسماته ، وجاء بعد الملك قواد الجيش . وكان يحيط بالركب فرقة من مشاة الجيش ، على هيئة حلقة مستطيلة ، ليمنعوا النظارة المحتشدة على جانبى الطريق أن يدنوا من الموكب ، إذا ما استخفهم شوقهم ، ودفعهم فضولهم إلى ذلك .



الملك العظيم خوفو

ولما اقترب حملة المحفة من معبد فتاح ، توقفوا عن السير ، وترجل الملك ، ومشى على الأرض حتى وصل إلى بابه ، فخف لاستقباله ثلة من الكهنة ، حتى إذا ما صاروا

منه قاب قوسين أو أدنى ، ركعوا، ثم سجدوا ، وكفروا ، ثم تقدم إليه كبير المرتلين وأخذ بيده إلى المنصة ، وأجلسه على العرش ، وتبعه إلى المنصة من كان معه من الأمراء والحكام وقواد الجيش ، وحفوا من حول العرش .

وجاء بعض الكهنة بتاج مصر العليا الأبيض ، فأخذه كبير المرتلين ووضعه على مفرق الملك ، وأهاب بالحاضرين أن يجتلوا طلعة ملك مصر العليا . ثم لم يلبث أن تقـــدم فريق آخر من الكهنة حاملين تاج مصر السفلى الأحمر ، فتسلمه كبير المرتلين ، وتقدم نحو الملك بخطا متثاقلة ، وبدله التاج الأبيض وأهاب بالحاضرين كرة أخرى أن يجتلوا طلعة ملك مصر السفلى .

ثم برز من بين الكهنة إثنان يلبس كل منهما لباساً خاصاً وقناعاً على هيئة أحد آلهة مصر العظام ، ويحملان قصبة طويلة ، وتقـــدما إلى وسط البهو حيث وضعا القصبة فى حفرة عميقة أعدت من قبل ، فنهض الملك ، وسار نحو القصبة ، يتبعه كبير المرتلين . وما كادا يصلان إليها حتى جاء من الجنوب كاهن من كهنة (نخبت) وقدم للملك حب البشنين ، رمز مصر العليا ، فأخذه الملك وغرسه فى الأرض فى بقعة هيئت لذلك ، جنوبى القصبة . ثم جاء من الشمال كاهن من كهنة وازيت (بوتو)، وقدم للملك حب نبات البردى ، رمز مصر السفلى ، فغرسه الملك فى بقعة أخرى أعدت من قبل شمالى القصبة .

وحين انتهى الملك من غرس النباتين المقدسين ، رمز الوجهين ، صعد إلى المنصة وتبوأ عرشه ، فتقدم إليه كبير المرتلين واستأذنه فى أن يتلو على الناس أسماءه الحسنى .

فأذن الملك .

وتلاها المرتل الأعظم .

وأهمها :

١ — حور: أى أنه صورة حية من الإله حور ، تعيش على الأرض .

٢ — سيد التاجين ،ويمثل أحدهما نسر الجنوب ،والآخر صل الشمال .

٣ — نيسوت بيتى (أى صاحب النبات سوت والنحلة) ومعناه ملك الوجهين القبلى والبحرى .

٤ — حورنب أى حور القاهر ، إشارة إلى انتصار حور على ست .

٥ — ابن الشمس .

ولما انتهى المرتل الأعظم من تلاوة أسماء الملك ، نهض الملك ، وسار خلف كبير المرتلين إلى قدس الأقداس ، ليصلى لفتاح ويحمده ويشكره .

ولما انتهى الملك من صلاته ، سار بركبه إلى القلعة البيضاء ، فطاف حولها ، تمجيدا لذكرى جده الملك المظفر (منا) وتخليدا لتوحيد المصرين .

وعاد الملك إلى القصر فرحا بما آتاه ربه من جلال الملك وبسطة السلطان .

وأطلقت الطيور إلى أنحاء مصر المختلفة ، تحمل البشرى بتتويج الملك إلى رعيته المخلصة .

* * *

خلا مكان سنفرو العظيم كما قدمنا ، وتوج ابنه خوفو كما أسلفنا . فورث حكومة عزيزة الجانب ، موطدة الأركان ، قوية ، بلغت أوج العلا فى المهابة والعظمة والنظام .

وزحفت (من — نفر) نحو الشمال فى أيام خوفو العظيم ، بانى الهرم الأكبر حتى أوشكت أن تدرك موضع مدينة الجيزة الحالية . وامتدت من أقصى شمالها نحو الغرب ضواح منها ، خصصت للمهندسين والبنائين والنحاتين والعمال ، الذين حشدهم الملك الشمير لإقامه هرمه أعجوبة الدهر ، ومعجزة الأيام .

ولا يتسع موضوع الكتاب للكتابة فى عبقرية المهندس الذى وضع تصميم الهرم الأكبر ، وأشرف على تنفيذه ، ولا فى دقة النحاتين الذين سووا حافات الأحجار ، التى شيد بها ، ولا فى طريقة نقل تلك الأحجار . والتى كان يزن بعضها نحو خمسين ومائتين وألف قنطار (١٢٥٠) ، ولا فى الوسائل التى رفعت بها إلى

موضعها (١) ، ولا فى العقلية الفذة التى أشرفت على تنسيق أعمال البناء المختلفة ، وعلى إطعام العمال ، الذين كانوا يبلغون مائة ألف أو يزيدون (٢) . فإن ذلك قد قامت بتفصيله كتب قيمة كثيرة (٣) .

ويكفى هنا أن نورد بعض ماجاء عنه فيها ، وبعض ماجرى على ألسنة بعض المؤرخين والثقات الباحثين بشأنه .

قال صاحب النجوم الزاهرة . وبها (والهاء تعود على مصر) البرابى العجيبة والهرمان (٤) (ويقصد هرمى خوفو وخفرع) وليس على وجه الأرض بناء باليد حجرا على حجر أطول منهما .

وقال بعض المؤرخين إن هذا العمل الجليل قامت به أمة من العمقالة (٥) الجبابرة لا يقرن بهم عظماء أى أمة إلا عدلوهم فى كفة الميزان .

---

(١) لقد أثبت بعض المؤرخين أن المصريين قد اخترعوا الروافع واستعملوها فى بناء أهرامهم ومعابدهم

(٢) وفى ذلك يقول الدكتور أحمد بدوى فى كتابه فى موكب الشمس ص ١٦٠ « وبلغ تنظيم العمل (ويعني في بناء الهرم الأكبر) أحسن مراتبه وأكمل غاياته وكانت آلاف العمال إنما تقسم فرقا وطوائف يحمل كل منها اسما خاصا . وكان الكتاب ومن يديرون الأعمال يرصدون لمراقبة العمل وسيره وضبط أموره في مضابط خاصة ، وكانت قطع الأحجار إنما تحمل أوصافها وعلامات تميزها وتحدد مكانها من المحاجر ومن البناء أيضاً ثم تؤرخ قطعها وتشير إلى نحاتيها .. وكان تموين العمال وتنظيم أحوالهم والسهر على سلامتهم يجري بمنتهى الدقة .

(٣) 1 — Flinder Petrie : Pyramids and Temples of Gizeh.
2 — M. D. Fraser : The Pyramids.
3 — M. Edgar : The Great Pyramid.
4 — L. Seiss : A Miracle in stone, or the Pyramid of Bgypt.
5 -- Prof. Eric Peat : The Pyramids of Egypt. (W. O. P. Vol II.)
6 — Prof. C. Piazzi Smith : Life & Work at the Great Pyramid.
7 — Colonel Howard Vyse : Operations at the Pyramids.

(٣) راجع كتاب C.Ebers : Egypt etc translated by Clara Bell VolI

(٤) كان يعتقد بعض الكتاب أن بانى هرمي خوفو وخفرع واحد .

(٥) يقصد بها كلمة (Giant) الانجليزية لا العمالقة المعروفين ، والنص :

They belong to a race of giants, before whom, the greatest of us feels small.

وقد رأى جيته ، أعظم شعراء الألمان وأدبائهم ، فى مدينه روما رسما خياليا للهرم الأكبر رسمه الرحالة الفرنسى كساس ، مستعملا فيه المقاييس الصحيحة ، والحقائق التى استقاها من علماء الآثار المصرية فقال (١) : إن هذا رسم لأكبر فكرة انتجها فن المعمار رأيتها من قبل ، واعتقد أن الإنسان لن يستطيع أن يأتى بأعظم منها .

وقال أرثر شوبنهور «إن كثيرا من موضوعات التأمل (obiects of contemplation) تثير إحساسنا بروعتها وجلالها وسحرها وجمالها ، لأن قدمها وصمودها لعاديات الدهر ، واتساع البقعة التى تشغلها تبعث فينا الشعور بالتضاؤل أمامها حتى نتلاشى . وضرب مثلا لها بالجبال الشامخة والأهرام (٢) »

ويقول فرجوسن Fergusson فى كتابه تاريخ فن البناء : ولا يفحص أحد داخل الهرم الأكبر من غير أن تدهشه المهارة الميكانيكية (Wonderful mechanical skill) العجيبة التى تتجلى فى البناء ، وتعجبه الكتل الجرانيتية الهائلة (immense) التى كان يؤتى بها من أسوان ، أى من مكان يبعد نحو تسعمائة ميل ، والتى تشبه الزجاج فى صقلها ، مرصوصة جنبا إلى جنب . بعضها فوق بعض ، بحيث تظهر كأنها كتلة واحدة ، لصعوبة تمييز حدودها ، وتعذر معرفة أين تبتدىء كل كتلة وأين تنتهى ، وليس ثمة أعجب من المقدار غير العادى من العلم الذى يتجلى فى تشييد الغرف التى وضعت فوق الحجرة الرئيسة للتخفيف عن سقفها ، وفى كثير من لازمات البناء . وكل هذه تمت بدقة فائقة حتى أنها على الرغم مما فوقها من أثقال هائلة ، فإنه

---

(١) ونصها مترجمة إلى الانجليزية :

This drawing is the most stupendous architectural idea I ever saw in my life, and I believe man can go no further.

(٢) G. Ebers, Egypt, translated from the original German by Clara Bell, Vol, I, P. 140.

لم يحدث تريح مافى أى جزء من أجزائها . ومنذ أن أقيم الهرم لم يشيد بناء أكمل ولا أدق من الوجهة الميكانيكية (١)

ويقول لنرمان : إنه على الأقل من حيث حجمه أضخم ماشيده الإنسان (٢)

---

(1) No one can possibly examine the interior of the Great pvramid without being struck with astonishment at the wonderful mechanical skill displayed in its construction. The immense blocks of granite . . , polished like glass , and so fitted that the joints can scarcely be detected . Nothing can be more wonderful than the extraordinary of knowledge displayed in the construction of the discharging chambers over the roof of the principal apartment, in the alignment of the sloping galleries , in the provision of the ventelating shafts , and all the wonderful contrivances of the structure . All these, too, are carried out with such precision that, not with- standing theLmmense superincumbent weight , no settlement in any part can be detected . . . Nothing more perfect mechanically has ever been erected since that time : Fergusson, history of Architecture Yol I PP. 91 — 92 .

(٢) ونصه :

At least in respect of its mass the most prodigious of all human constructions .

فلقد روى هيرودوت : أن كيوبس (خوفو) أغلق الهياكل وحرم على الناس تقديم القرابين فيها ، ثم حكم عليهم جميعاً ، من غير فارق ولا تمييز ، بالأشغال الشاقة . فخص فريقاً منهم باقتلاع الأحجار من محاجر سلسلة جبال العرب ، وجرها حتى ضفة النيل ، وأكره فريقاً آخر على تسلمها واجتياز النهر بها فى المراكب وسحبها بعد ذلك إلى الجبل بناحية ليبية . وكان يحشد فى كل ثلاثة أشهر مائة ألف رجل ليسخرهم فى هذه الأعمال . فانقضت عشر سنوات فى إنشاء الطريق اللازم لجر الأحجار ، تكبد الشعب فى أثنائها من المشاق مايشق المرائر ، لأن هذا الجسر لم يكن عند نهايته أقل ارتفاعاً من الهرم نفسه .

وقد بلغ طوله خمس استادات أى ٢٥٦ توازا وعرضه عشر أورجيات أى من ٥٦ — ٥٧ قدما وارتفاعه فى الجهة التى يبلغ فيها أقصى العلو ثمانى أورجيات أى ٤٥ قدما ونصف قدم . وكان ذلك الجسر مكسوا بأحجار صلبة محلاة بالنقوش . وعليه فيكون إنشاؤه هو وبعض الغرف تحت أرض الأكمة التى شيدت الأهرام الثلاثة عليها قد استغرق عشر سنوات كاملة . .

أما بناء الهرم نفسه قد استغرق العمل فيه عشرين عاماً وصالا

ولكى يحصل كيوبس على نفقة تلك البناية الجسيمة سار بالظلم بين الرعية وأسرف فى العسف بهم إلى أن ذكر أكذوبته التى زعم فيها أن كيوبس أباح لابنته الفاحشة مع من تريد لتحصل له من هذا السبيل على أقصى ماتستطيع من المال .

وقال الدكتور أحمد بدوى : (ولم تبلغ هندسة العمارة من الكمال ما بلغت أيام الأهرام ، ولو أتيح لأصحاب العمارة وفنون النحت والبناء من أهل اليوم ، ما أتيح لأمثالهم من أهل الماضى من المقدرة الفنية والبراعة الهندسية ، لبلغوا بذلك أقصى ما يبتغون . فما نعرف أن أصحاب الفنون فى أيامنا هذه بما أتاحت لهم مدنية العصر من آلات الضبط والرفع والحساب وأدوات البناء والعمارة ، يقدرون على أحسن مما بلغ البناء القديم أيام الأهرام) .

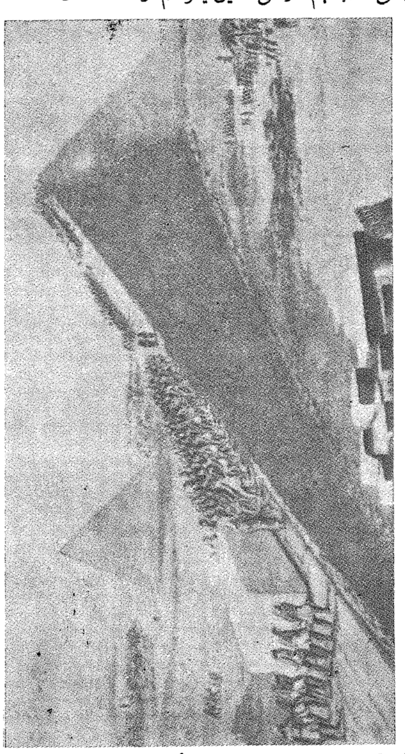
كما يكفى أن نورد بعض الحقائق عنه بجملة فيما يلى :

لقد احتاج تشييده من ساعات العمل ما يقدره مهندسو اليوم بنحو ٢٧٠٠ مليون ساعة ، وقد تطلب تشييده مائة ألف من العمال الأشداء مدة ثلاثين سنة سويا فى رواية هيرودوت نقلا عن المصريين (١)، ويبلغ طول ضلع قاعدته المربعة ٧٦٤ قدما (نحو ٢٣٤ مترا ، وارتفاعه ٤٨٢ قدما (نحو ١٤٧ مترا) ، وحجمه ٩٠ مليون قدم مكعب أى نحو ٢٫٦٤٠٫٠٠٠ مترا مكعبا زنتها ٦٫٨٤٨٫٠٠٠ طنا ، أى نحو ١٥٠٫٤٨٠٫٠٠٠ قنطارا ، ومساحة قاعدته أكثر من ١٣ فدانا . وإذا استخدمت حجارته فى بناء مدينة لبلغ عدد دورها ٢٢ ألفا من الدور المتوسطة الحجم تتسع لنحو ١٦٠ ألف نفس أو تزيد وإذا أريد الآن بناء هرم مثله بلغت نفقاته خمسين ألف ألف جنيه ونيفاً .

ولقد أخبر أحد المصريين هيرودوت أن ما صرفه خوفو على المشهيات التى كانت تقدم للعمال ، الذين قاموا بنقل الحجارة من محاجرها ، إلى حيث أرادها البناءون يقدر بنحو ٣٦٠ ألف جنيه مصرى ، فصاح أبو التاريخ من الدهش قائلا : ياويلتاه . إذا كان هذا القدر من المال قد صرف على المشهيات وحدها ، فكم صرف

(١) الهلال سبتمبر ١٩٤٧ (الآلة كم ضاعفت الانتاج) ولا نعلم ماذا يقصد كاتب المقال ب ٢٧٠٠ مليون ساعة ولعله يقصد ما يقصده مؤلفو المسائل الحسابية الخاصة بالعمل وساعات عملهم فى اليوم الواحد أي أنه لو كلف عامل واحد ببناء الهرم لبقى ألفين وسبعمائة مليون ساعة فى بنائه .

خوفو على طعامهم من خبز ولحم وخضر وفاكهة ، وعلى الأوانى التى كان يقدم لهم فيها الطعام بعد إعداده ، وعلى وسائل إعداده ، وعلى المساكن التى أقيمت لإيوائهم ، وعلى ملابسهم ، وعلى الذين يعولهم أولئك العمال .



صورة خيالية توضح طريقة بناء الهرم

ولقد فكر كثير من المؤرخين فى هذه الأمور كلها ، وبحثوها بحثا مستفيضاً ، وقدروها بمقادير متفاوتة ووصلوا إلى نتائج مختلفة .

ففريق منهم يرى أن ذلك البنـــاء المشمخر الضخم لا يستطيع أن يضطلع ببنيانه إلا ظالم مستبد ، ساق له الناس سوقا ، غير آبه لدموع ذويهم ، ولا ملق بالا إلى مايصيب حرثهم من هلاك ، وتجارتهم من كساد . ولما تم له جمعهم سلط عليهم زبانية قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، التي كلفوا قلعها أو نحتهـا أو نقلها ، فألهبوا جنوبهم وظهورهم بسياط من عذاب ، ولم يكسر من حدتهم العرق المتصبب من جباههم ، ولا الدماء التي كانت تسيل من بنانهم ، ولا الهزال الذى كان يولده فيهم التعب المضنى المتصل [١]

ولم يقم هذا الفريق الدليل على مايزعمون . وفريق لا يرى مايراه الفريق الأول رأيا ويدللون على بطلانه [٢] . وإننا نميل إلى الأخذ برأى هذا الفريق لأن المصريين القدامى كانوا ينفرون بطبيعتهم من العنف والقسوة ، ويرغبون عن الظلم ، ويستنكفون من تسخير الناس فى أعمالهم الخاصة ، وبخاصه تشييد قبورهم ، ويحرصون الحرص كله على نقش براءتهم من ذلك على جدرانها . ومن ذلك ماوجد منقوشا على قبر (أرمنوكا) كبير كهنة الملك (منكاورع) : أما من جهة هذا القبر الأبدى ، فإنى لم أغتصب له قط شيئا من أى إنسان ، لأنى أذكر يوم الحساب فى الغرب (الآخرة) ، وقد أقمته مقابل أجور من الخبز والجعة التى أعطيتها العمال ، الذين أقاموه ، تأمل ، لا ريب إنى أعطيتهم أجورهم كاملة غير منقوصة من الكتان الذى كانوا يطلبونه ، وقد دعوا الله لى من أجل ذلك .

يستكف هذا الفريق الأعين وينظر فلا يرى فى بناء الهرم الأكبر العرق المتصبب من جباه المظلومين ، ولا السياط ترتفع فى أيدى الزبانية القساة ، ثم

---

(١) لقد دلل أحمد باشا كمال بأمور كثيرة عددها فى كتابه العقد الثمين على أن دعوى اليونان على الملك خوفو بأنه كان ظالما لرعيته لبناء هرمه مجاناً . . كذب لا أصل له . . ولعل قولهم إنه ظالم لرعيته فى بناء هرمه مبنى على أنه لما قاتل بنى عون وأسر رجالهم أمر أولئك الأسرى بالعمل مجاناً فى هرمه كما هى عادة قدماء الملوك مع الأسرى . . بله الدول الحالية وهذا لا يفيد أنه ظالم لرعيته ا هـ . أحمد كمال : العقد الثمين ص ٣١ .

(٢) سليم بك حسن : مصر القديمة الجزء الثانى ص ٣٩ .

تهوى على ظهور العاملين الناصبين ، ولا الدماء تقطر من أيديهم ، ولكنه يرى فيه حكمة الراعى المسئول عن رعيته ، البصير بأمورها ، المدبر لشئونها .

وخلاصة رأيهم أن خوفو — وكان كما قدمنا — من خير الفراعنة الشداد علما ، وأسدهم رأيا ، وأكثرهم بحثا فى معرفة الخير من الشر — رأى أن الفلاحين — سكان القرى لا يشتغلون فى الأرض إلا أياماً معدودات فى أثناء بذر الحب وحرث الأرض ، وفى إبان الحصاد والجمع ، يقعدون فيما بين ذلك فى دورهم ، لا يكادون يعملون شيئاً نافعاً[١] . رأى الملك ذلك الفراغ الطويل ، فخاف على شعبه الفساد ، وأشفق أن يتعودوا الكسل ، ويتأصل فيهم الخمول [٢] ، فأمر حكام الولايات أن يختاروا من أشداء سكانها من يصلحوا للاضطلاع بأعباء إقامة ذلك البناء الضخم ، فتخيروا ، وجاء الناس إلى (من — تفر) فرحين تلبية لأمر الإله الطيب .

---

(١) لقد كانت مصر فى عصور الفراعنة ، وفى العصور التى تلتها إلى زمن محمد على باشا ، تروى بطريقة الحياض ، أو ماتسمى أحيانا بطريقة الرى النيلى ، وطريقة ذلك أن تقام جسور أو صلائب من التراب تقسم الأرض أقساما كبيرة تسمى حياضاً ، تغمرها مياه الفيضان كل سنة ، فتمكث عليها نيفا وستين يوما ، ثم تنصرف إلى النيل بعد أن تترك على الأرض طبقة رقيقة من الطمى الخصب وفى تلك المدة أى مدة الفيضان (بين ١٥ أغسطس والأسبوع الأخير من أكتوبر) يضرب الماء بين القرى ، فتصبح كالجزائر ، لايمكن الوصول إلى إحداها إلا بخفاف القوارب ، وصغار المراكب ويصبح الناس بلا عمل . فاذا ما انصرف الماء عن الأرض ، خرج الناس لزراعتها . وكان يستغرق البذر والحرث نحو شهر ، ثم تأتى فترة طويلة ، لايعمل الناس فيها إلاقليلا . ثم يأتى موسم الحصاد والجمع والدرس والتذرية . ولم يكن يزيد على الشهرين . يتلو ذلك فترة ، يقوم فيها عدد قليل من الناس بزرع مساحات صغيرة ، فى أماكن معينة وإرواثها بماء الآبار . يتلو ذلك فصل الفيضان . وهكذا دواليك .

(٢) وازن عمل خوفو — إذا صدق رأي هذا الفريق — بعمل المستر لويد جورج حين حزبت بريطانيا العظمى مشكلة الملايين العاطلين ، إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ورأى أنه أجدى على بريطانيا أن يستخدم العاطلون فى شق طرق لم تكن الحاجة إليها ملحة ، بدلا من أن تجرى عليهم الأرزاق ، وهم قاعدون ، لا يعملون شيئاً مفيداً — ولتعلم أن خوفو عاش قبل لويد جورج بأكثر من اثنين وخمسين قرناً أى منذ نحو (٥٢٠٠) .

وفريق هالته ضخامة الهرم وفخامته ، فلم يصدقوا أنه من عمل بشر مثلنا ، فذهب بعضهم إلى أنه من عمل سحرة راسخين فى علم السحر (١) إن جاز لنا أن نسمي السحر علما — قالوا للجبال كوني حجارة فكانت . وقالوا للحجارة تشذبي ،

(١) لقد استفاض ذكر حضارة المصريين القدامى وما أتوه من بدائع وأعمال ، فالى خلفاؤهم فيها ، وخرج بها رواتهم من العرب عن حد المعقول . فمن طريف ما رواه ابن إياس فى تاريخه عن أعمال بعض ملوك مصر وحكمائها ما يأتى :— « ثم تولى ابنه نفطريم (كذا) . . وقد بنى مدينة فى مصر أسماها باسمه ، وجعل لها أربعة أبواب ، ونصب على كل باب منها صنما من النحاس الأصفر ، فكان إذا دخل إلى تلك المدينة غريب ألقى عليه النوم ، فلا ينتبه حتى يأتى إليه أحد من أهل المدينة فينفخ فيه حتى يتنبه . وان لم يفعلوا ذلك ، فلا يزال نائما حتى يموت . . فلما هلك تولى من بعده ابنه . . وكان عالما . . وله أعمال عجيبة منها أنه عمل شجرة من نحاس أصفر ، ووضعها فى الفضاء ، وكان لايمر بها وحش ولا طير إلا وقف مكانه فلا يستطيع الحركة حتى يؤخذ باليد فشبعت الناس فى أيامه من لحوم الوحش والطير . . وتولى بعده قيلمون ؟ (كذا) وكان ماهرا فى علوم السحر والكهانة فكان يجلس فى السحاب نحو ستة أشهر . . ثم تولى ابنه وكانت له أعمال عجيبة ، منها أنه عمل قدحا لطيفا من زجاج أخضر إذا صب فيه شيء من الماء أو غيره وشرب منه جميع من فى المدينة لاينقص منه شيء ولو أقام دهراً طويلا . . وتولى بعده ابنه وكان عالما فاضلا فى علوم الكهانة والسحر ، وكانت له أعمال عجيبة منها أنه عمل منارة على بحر القلزم ووضع فوقها مرآة من أخلاط شتي ، فكان من شأنها أن تجلب المراكب إلى البر ، فلايبرح حتي يأخذ منها العشر من أصناف البضائع . ثم تولى مرقونس (كذا) وله أعمال عجيبة ، منها أن صنع الآنية التي إذا ملئت بالماء يصير خمراً ، وقد وجدت فى مدينة اطفيح فى عهد هرون ابن خمارويه . . وتولي ابنه صاء وهو الذى بنى مدينة صاءوبه ، وهى الآن خراب على شاطىء النيل (ولعلها صالحجر) . . وكان عليها مرآة إلى آخر مارواه ابن إلياس من خرافات أشبه بخرافات قصص ألف ليلة ، ولعلها كانت المعين التي غرف منها مؤلفها .

إلى أن قال عن أحد الفراعنة « إنه قد انفرد بعلم الكهانة والطلسمات ، وقيل انه قد انتهى إلى البحر المحيط وبنى هناك قلعة ، وكانت الجن والشياطين تحمل سريره على أعناقهم ويطوفون به فى سائر أقاليم الدنيا ، ثم يرجعون إلى قلعته التى بناها وسط البحرالمحيط . . ثم حكم من بعده فرعون يعلم الطلسمات ومن أعماله شجرة من نحاس أصفر ، ولها فروع إذا قرب منها ظالم اختطفته بتلك الفروع فلا تفلته حتى يقر بظلمه ومنهم من كان يتحكم فى الريح ، ومنهم من صنع بطة من نحاس أصفر قائمة على اسطوانة من رخام أخضر على باب المدينة فاذا دخل المدينة غريب صفقت البطة بجناحيها وصرخت حتى يسمعها كل من فى المدينة فيمسكون ذلك الغريب . ومنهم من صنع عقابين من نحاس أصفر ذكر وأنثى ووضعهما على حافة بركة أول مقياس للنيل فكان إذا بدأت زيادة النيل ودخل الماء فى البركة اجتمع الكهان حول العقابين فيصفر أحدهما فاذا صفر الذكر كان النيل فى تلك السنة عاليا . وإذا صفرت الأنثى كان النيل منخفضاً ، فيعدون العدة لذلك .

ثم سيرى ، فأطاعت : ولما رأوا أن قد تكامل العدد الكافى منها ،قالوا لها : كونى بناء مشمخرا ، ليس كمثله بناء ، ولن يبلغ شأوه بناء ، فكان الهرم الأعظم أعجوبة الدهر ومعجزة الأيام .

وحاول بعضهم[١] أن يبرهن أنه جبل ، جزء من الصخر الذى تحته، برأه الذى برأ رواسى الجبال .

ولقد اختلف الناس فى سبب بنائه ، إختلافهم فى كيفيته . فزعم بعضهم أنه بنى لأغراض فلكية وحسابية ،وزعم بعضهم أنه بنى لحفظ قواعد العلوم إذا ماحدث طوفان ، فأغرق حرث الأرض ونسلها ، وزعم بعضهم أنه بنى ليدون على حيطانه الداخلة أحاديث العالم وحوادثه العظيمة ، وقيل فى ذلك مضحكات ، نذكر منها للتفكهه أنه بناه يوسف عليه السلام[٢] ليخزن فيه محصول السنين الخضر للسنين الممحلات[٣] وفيما يلى نقطف أقوال بعضهم : —

قال الاستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب . . . (وسبب بناء الهرمين العظيمين اللذين بمصر أنه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة قد رأى سويرد[٤] فى منامه كأن الأرض قد انقلبت بأهلها ، وكأن الناس قد هربوا على وجوههم ، وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضاً بأصوات هائلة ، فأغمه ذلك ، ولم يذكره لأحد . وعلم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم . ثم رأى بعد مدة مناما آخر أزعجه أكثر من الأول ، فدخل إلى هيكل الشمس ، وتضرع ، ومرغ وجهه على التراب وبكى ، فلما أصبح ، جمع رؤساء الكهنة من جميع أهل مصر ، وكانوا مائة وثلاثين كاهناً ، وخلا بهم ، وذكر لهم ما رآه أولا وآخراً ، فأولوه بأمر عظيم يحدث

---

(١) ومنهم العالم الالماني الهركوهن

(٢) جاء سيدنا يوسف إلى مصر بعد بناء الهرم الاكبر بزمن طويل .

(٣) راجع رؤيا فرعون فى قصة سيدنا يوسف .

(٤) اسم أطلقه على فرعون باني الهرم الأكبر .

فى العالم، ثم حكى بعض الكهنة أيضاً أنه رأى مناماً أعظم من هذا المنام فى معناه، ثم أخذوا الإرتفاع[١] وأخبروه بالطوفان وبعده بالنار، التى تخرج من برج الأسد. فقال (أنظروا هل تلحق هذه الآفة بلادنا؟ فقالوا (نعم) فأمر ببناء الأهرام وجعل فى داخلها الطلسمات والأموال وأجساد ملوكهم، وأمر الكهنة أن يزبروا[٢] عليها جميع ماقاله الحكماء، فزبروا فيها وفى سقوفها وحيطانها جميع العلوم الماضية، وصوروا فيها صور الكواكب وعليها الطلسمات ..... ولما فرغت (فرغ منها) كساها الديباج الملون، وعمل لهم عيدا، حضره أهل ملتهم، ثم عمل فى الهرم الغربى حجارة صوان ملونة، ملئت بالأموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخرة، والسلاح الذى لا يصدأ، والزجاج الذى ينطوى ولا ينكسر[٣] وأصناف العقاقير والسموم القاتلة. ثم عمل فى الهرم الشرقى أصناف القباب الفلكية والكواكب وما عمل أجداده من أشياء يطول شرحها.

وقال صاحب النجوم الزاهرة. (إن هرمس[٤] ... استدل من أحوال الكواكب على كون[٥] الطوفان، فأمر ببناء الأهرام، وإيداعها الأموال وصحائف العلوم، وما يخاف عليه من الذهاب والدثور.. ويقال إن لها أبوابا فى الأرض، وكل باب من حجر واحد، يدور بلولب، إذا أطبق، لم يعلم أنه باب. يدخل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت على اسم كوكب من الكواكب السبعة، وكلها مقفلة بأقفال من حديد. وحذاء كل بيت صنم من ذهب مجوف، إحدى يديه على فيه، وفى جبهته كتابة بالمسند، إذا قرئت، انتفخ فوه، فيوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح.

وإن هذه الخرافات الطريفة وأشباهها دفعت الخليفة المأمون إلى الأمر بنقب

---

(١) لعل معنى ذلك رصد النجوم.

(٢) زبر: كتب، وبابه ضرب ونصر والزبر بالكسر الكتاب، وكذلك الزبور.

(٣) ولعله نوع من الباغة.

(٤) قيل ان هرمس اسم لادريس عليه السلام.

(٥) كون الطوفان: حدوثه.

الهرم الأكبر، ومن أغرب ما يروى فى ذلك وأكذبه أن النقب انتهى إلى موضع مربع، وجد فيه بجوار التابوت الذى وجدت فيه رمة الملك جاما من زمرد مغطى، فكشف، فوجد فيه مقـــدار ما أنفقه المأمون فى عمل النقب من غير زيادة، ووجدت فيه لوحة من الرخام نقش عليها ما يأتى « إن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد سيفتح هذا الهرم فى سنة (كذا)[1]، وينفق فى ذلك مقداراً من المال أودعناه له الجام، فليأخذه، ويقنع به، ولكنه إذا لم يقنع به، ودفعه الطمع إلى التماس غيره، فإنه يتعب نفسه، ويجهد عماله، ولا يجد شيئاً.

وكتب رولنسن[2] : « يرى بعضهم أن الهرم الأكبر بنى ليسجل المستكشفات الكونية، التى كشفها المصريون قبل بنائه، كطول قطر الأرض، وطول محيطها، وطول الدرجات الطولية، ووحدة المقاييس ... ويرى بعضهم أنه مبنى ليكون مرصداً، لاعتقادهم أن الممرات التى صممها مهندسها كوسائل للتهوية، مناظير مقربة لرصد الكواكب والنجوم والشمس والقمر.

***

وكمل الهرم وأفرغ عليه كساء الحجر الصلد المصقول، المجلوب من محاجر طرة المشهورة.

وبعد أن فرغ خوفو من تشييد أفقه، أقام شرقيه معبداً جنازيا، وكان معبداً ضخماً فخماً، زينت حيطانه بالنقوش، وكان قسمين، خص أحدهما بمصر العليا، والآخر بمصر السفلى، تنفيذاً لفكرة الإزدواج، التى حافظ عليها ملوك الدولة القديمة فى معابدهم وقصورهم، وفى كثير من المصالح الحكوميـــة فى حاضرتهم العظيمة (من — نفر). ثم بنى معبد الوادى على حافة الهضبة المشرفة على الوادى، وشيد بعد ذلك طريقاً طويلا متسعاً بينهما رآه هيرودوت، فأعجب به، وهالته ضخامة الأحجار المبنية به، فذكر أنه أعجب من الهرم العظيم نفسه.

ثم شيدت مدينة صغيرة بجوار الهرم لسكنى الكهنة وأتباعهم. وأخيراً

---

(١) زار الخليفة المأمون مصر عام ٢١٧ هـ ولعله قام بنقب الهرم فى هــذا العام

(٢) G. Rawlinson: Ancient Egypt.

أحيطت تلك العمائر كلها بسور عظيم ، يمنع المتطفلين من الدنو من حرمها .

ويغلب على الظن أنه حين أتم خوفو تلك المنشئات كلها ، أقام حفلا رائعاً ، خليقاً بما أنجز من عمل . فكر من قبل فيه ، وأعد له ، ودعا إليه . وشرّف كل من أحسن عملا من المهندسين والبنائين والنحاتين . ثم فتحت خزائن الذهب والفضة وأنواع الكساء ، وأجزل العطاء للعمال ، وسرحوا إلى قراهم ، مغتبطين بما أدوا ، فرحين بما أعطوا .

ولقد كان العمل المتشعب المتصل فى بناء الهرم ملء سمع خوفو وملء بصره ، ويشغل جل وقته ، ويشيع فى نفسه الأمل الحلو فى إتمام عمل لم يرمه أحد غيره . وأكبر الظن أن الملل والسآمة والضجر لم تحل بساحته فى أثنائه ، ولكنه حين تم البناء ، وانتهت أحفاله ، وأكثر من الذهاب إليه والفرجة عليه ، وألف منظره ، وأصبح عنده تاريخاً ، ساورته المنغصات الثلاثة ، فاستجار منها بالسحرة يُدْعون له من أدنى البلاد وأقصاها ، فيطرب لأحاديثهم ، ويعجب بأعمالهم وألعابهم[1] . واستعان عليها بالقصاص ،يستمع إلى قصصهم الشيقة . ولا ريب أن القصص ، التى نسبت للملك خوفو دونت بعد وفاته بقرون عدة ، وقد تكون كواو عمرو ، شأنها شأن القصص التى تروى عن هرون الرشيد فى ألف ليلة وليلة ، ولكنها مع ذلك جليلة الفائدة من الوجهة التاريخية ، لأنها تصور لنا بعضاً من نواحى الحياة الإجتماعية فى عصره ، ولهذا نرى من الخير أن نجمل بعضها فيما يلى : —

زعموا أن الملك خوفو شعر ذات يوم بضيق فى صدره ، وملل فى نفسه ،

---

(١) الدكتور احمد بدوى فى موكب الشمس ص ٢٣١ .

ويرى الدكتور بدوى كما نرى أن القصص التى دونت فى بردية (فستكار) منسوبة إلى عصر الملك خوفو قد تكون قد ألفت بعده بمئات السنين ، وقصت لغيره ، وقد تكون الأعمال التى قيل أن السحرة قاموا بها أمام بانى الهرم الاعظم لم يرها ، وإنما نسبت إليه ، ذلك لعظمته وشهرته كما نسب كثير من قصص ألف ليلة وليلة إلى عصر هارون الرشيد ، ولكن هذا كله لا ينهض دليلا على أن خوفو لم يكن من الميالين إلى القصص والقصاص ، ومن النزاعين إلى السحر ، والسحرة .

فدعا إليه أبناءه وبعض صحبه المقربين ، وجلس على عرشه ، وكان فى أجمل أبهاء القصر نقشاً وتزويقاً ، وأفخمها أثاثا وفرشا ، وجلسوا من حوله ، حافين بعرشه ، قلقين واجمين ، لايدرون ما خطب الملك !

ولما طلب الملك منهم أن يقصوا عليه أحسن ماسمعوا ، أو قرأوا ، من قصص الساحرين ، سرى عنهم ما كانوا يجدونه من الهم ، وتقدم الأمير (ددفرع) أكبر أنجال الملك وقال: إعلم أيها الملك السعيد .. وقص عليه قصة حدثت وقائعها فى أيام الملك زوسر ، وقام بها ساحره (رئيس المرتلين)[1] ولكن مما يؤسف له كثيراً ، أن البردية التى دونت عليها قصص أبناء الملك ، تلف أولها ، ولم يحفظ من القصة الأولى ، أى قصة الأمير (ددفرع) إلا نهايتها ، وفيها يأمر الملك خوفو بتقديم أنواع من الطعام والشراب ، توضع فى قبر الملك (زوسر) وقبر ساحره إعجاباً منه بهما .

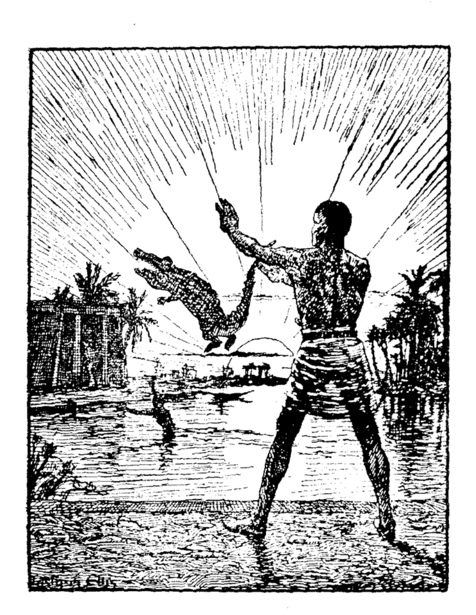
ولما انتهى الأمير (ددفرع) من قصته ، وشكرها له الملك ، وأثنى عليه الحاضرون ، وأخذ مجلسه ، مرموقا بنظرات التقدير ، نهض الأمير خفرع بانى الهرم الثانى ، وكفر ، ثم شرع يقص قصته قال :

إعلم أيها الملك السعيد أن جدك العظيم (نبكا) زار يوماً فى حشد كبير من أتباعه معبد الإله فتاح ، وكان فى حاشيته فتى فارع الطول وضاح الجبين ، فافتتنت به زوج رئيس المرتلين (وباونر) ، فأرسلت إليه خادمتها تحمل إليه هدية فاخرة ، وتبثه غرامها ، وتواعده حديقة زوجها ، وكانت قريبة من (من نفر) ، فكان يوافيها هناك ويظلان يمرحان ويلعبان فى كشك الحديقة حتى المغيب ، وكان الفتى يسبح فى البحيرة التى يشرف عليها الكشك فرآه حارس الحديقة ، فرأى من الأمانة أن يعلم رب الحديقة بما يجرى فيها . ولما علم رئيس المرتلين الخبر ، وكان ساحراً

---

(١) رئيس المرتلين : رئيس الكهنة الراسخين فى الدين ، والعالمين بالكتب المقدسة . وهو فى الغالب فوق علمه ساحراً ماهراً .

ماهراً ، صنع من الشمع ما على هيئة تمساح ، وأعطاه لخادمه الأمين وقال له — خذ هذا معك إلى الحديقة ، وحين ترى الفتى يسبح فى البحيرة إلق بالتمساح إلى الماء ، ومره بأن يقبض عليه ويمكث به فى قاع البحيرة . وفعل الخادم ما أمره سيده . وانقلب التمساح الصغير من الشمع تمساحا ضخما قوياً عض على فخذ الفتى بنواجذه وجره إلى قاع البحيرة .



الحارس يرمى الدمية فتحول تمساحا

وذهب رئيس المرتلين إلى الملك وقال له : هل أدلك على عجيبة من عجائب أيامك السعيدة .

قال الملك نبكا : نعم

وسار رئيس المرتلين يتبعه الملك بركب حافل بأتباعه ، حتى وصلوا إلى البحيرة ووقفوا على ضفافها .

ونادى رئيس المرتلين على التمساح ، فخرج وبين فكيه الفتى ، فأمره أن يتركه ، فما كاد يتركه ، حتى حال التمساح الهائل لعبة صغيرة على هيئة تمساح من الشمع ، ووقف الفتى كاسف البال مطرقا من الخجل .

وسأل الملك رئيس المرتلين عن خطب الفتى ، فقص قصته مع زوجته .

فقضى الملك على الفتى بأن يلتقمه التمساح ، فألقى فى الماء ثم ألقى وراءه التمساح وكان ذلك آخر عهده بالدنيا . وقضى على الزوجة الخائنة بأن تحرق حية ، فحرقت جزاء وفاقا لخيانتها زوجها ، ولبئس عقبى الخائنين .

فلما ختم الأمير قصته ، سر منها الملك ، وأمر أن يقدم[1] للملك (نبكا) ألف رغيف من الخبز ، ومائة جرة من الجعة ، وقدحين من البخور ، وأن يقدم لرئيس المرتلين (وباونر) جرة من الجعة ، وقطعة كبيرة من اللحم ، وقدحا واحدا من البخور ، إحتراما للأول ، وتقديرا لعلم الثانى .

ونهض الأمير (بوفرع) ليقص قصته قال : إعلم أيها الملك السعيد أن الأعجوبة التى سأروى لك نبأها حدثت فى أيام والدك العظيم سنفرو وقام بها رئيس المرتلين (زازا معنخ) وذلك أن جدك العظيم سنفرو حرج صدره ذات يوم ، فاستدعى كبار علماء منف ، ومشاهير أدبائها ، وفحول شعرائها ، عله يجد فى علمهم أو أدبهم أو شعرهم مايذهب عنه الحرج ، ولكنه لم يجد عندهم ما يشرح صدره فانصرفوا يتلاومون .

وصاح الملك بحشمه الحافين بعرشه : ادعوا لى زازامعنخ رئيس المرتلين وجاء زازامعنخ يهرع إليه ، فأنبأه الملك بما يشعر من ضيق وما كان من العلماء والأدباء من قلة غناء .

فأشار زازا معنخ على الملك بأن يخرج فى طائفة من الجوارى الفاتنات الحسان ، الكواعب الأبكار ، لابسات أثوابا من الشباك المصبغة ، التى لا تحجب

---

(١) اى يوزع صدقة على روحه .

عنه زينتهن ، ويركبن فى معيته السنية إحدى الجوارى المنشآت فى بحيرة القصر الـكبرى ، تغدو وتروح بين الضفاف الخضراء فيجتمع له بذلك مذهبات الحزن والحرج الثلاث : الخضرة والماء والوجه الحسن .

فقال الملك لزازا : إنى فاعل ذلك الساعة .

وأذن الملك لزازا بالإنصراف .

ثم أمر حشمه أن يحضروا عشرين مجدافا من الأبنوس المرصع بالذهب ، وأن يأتوه بعشرين جارية كعاب هيفاء ، وأن يجردوهن من كل محيط ومخيط ويفرغوا عليهن شباكا مصبغة .

وسارت السفينه باسم الله تدفعها المجاديف . وسكن الملك إلى ماحوله من أسباب النعيم ، فالخضرة تطالعه عن اليمين وعن الشمال ، والماء جعد كأنه درع من الزرد ، والجوارى النهد يغنين،وتتابع أجسامهن حركات المجاديف فى رقة ورشاقة وعلى حين فجأة انقطع الحداء ، وتوقفت الجوارى عن التجديف . وقلت سرعة السفين ، ثم مالبثت أن سكنت ، فانزعج الملك ، وســـأل الجوارى عن سبب توقفهن عن التجديف ، فقلن له : « لقد أضربت رئيستنا عن الحداء ، فأضربنا عن التجديف ؟ »

فقال الملك للحادية : « ماخطبك أيتها الحادية ؟ »

فقالت : « لقد تعثرت فى شعرى ، فانفرط عقدى الجديد ، وسقطت واسطته فى الماء ، فصدنى ذلك عن الحداء . »

فقال لها الملك : « استأنفى حداءك ، وسأعوضك خيراً منها . »

فقالت : « لا ابتغى عن حليتى بديلا . »

فصاح الملك فى بعض حشمه : « ائتونى بزازا معنخ . »

وجاء زازا معنخ مهطعا ، ومثل أمام الملك .

فقال له الملك : « لقد فعلت ما أشرت به ، وسر قلبى ، وانشرح صدرى مما

رأيت ، ولكن الحادية أسقطت حليتها فى الماء ، فأضربت عن الحداء ، فأضرب الجوارى الأخريات عن التجديف ، وقد عرضت عليها أن أعوضها خيراً منها ، فأصرت على رد حليتها إليها ، قبل أن تستأنف حداءها ؟ »

وقال زازامعنخ للملك : « لاتنزعج أيها الملك ، فإن رد حليتها إليها سهل هين علىّ »

وتلا زازا معنخ عزيمة سحرية ، فتحرك ماء البحيرة ، وأخذ يتكدس فى جانب واحد ، وينسلح عن الجانب الآخر الذى سقطت فيه الحلية ، حتى تعرى ، ومنعت قوة خفية الماء المتكدس من الانهيار . فعجب الملك ، وفغرت الجوارى أفواههن من الدهشة .

وجاء أحد الحشم بالحلية ، ففرحت الحادية . واستأنفت حداءها ، فاستأنفت الجوارى تجديفهن ، فسارت السفينة باسم الله كرة أخرى ، وقضى الملك يوما سعيداً . وسر لذلك كل من فى القصر وتعجبوا من علم زازا معنخ ، وقدرته الفائقة فى السحر ، وأحسنوا الثناء عليه .

ودعا الملك (زازا) وشكره ، وأعطاه من كل طيب وثمين . ولما ختم الأمير بو فرع قصته ، أمر جلالة الملك خوفو أن يقدم إلى جلالة الملك (سنفرو) مائة رغيف ومائة جرة من الجعة ، وثورا ، وقدحين من البخور . ولرئيس المرتلين (زازا معنخ) فطيرة ، وجرة من الجعة ، وقدحا من البخور .

ونهض الأمير حردادف ليدلى دلوه ، فقال :

« إن ماسمعته ، أيها الملك السعيد ، إلى الآن ، أمثلة لأعمال سحرة عاشوا فى العصور الخالية ، وما يروى لنا من أخبارهم يحتمل الصدق والكذب ، وإن بين رعاياك المخلصين ساحراً عظيما ، تفوق أعماله أعمال من سمعت أخبارهم . وإذا أراد جلالة الملك ، جئنا به ، لترى بعينيك ما يأتى من الأعاجيب . »

فقال جلالته : « من هذا الساحر يا بنى وما دله وشكله ؟

فقال حردادف إنه معمر . يبلغ من العمر مائة وعشرة أعوام ، وأسمه (ددى)

ويسكن فى (دد-سنفرو) . وعلى الرغم من كبر سنه، فإنه موفور الصحة، ويستطيع أن يأكل خمسين رغيفا من الخبز ، وفخذ ثور ، ويشرب عشرين جرة من الجعة [١]. وفى استطاعته أن يحيى الموتى ، وأن يجعل الأسد الضارى يتبعه كظله ، وفوق ذلك فإنه يعلم عدد أقفال معبد (تحوت) .

وكان الملك خوفو يود لو يعثر على أقفال معبد (تحوت إله العلم) ليضع لأفقه مثلها فقال جلالته للأمير (حردادف) عليك يابنى أن تذهب إليه وتحضره لى .

وأعدت السفن للأمير ، وسارت به فى النيل جنوبا ، نحو (دد سنفرو) ولما صارت حذاءها ، رست على الشاطىء الغربى ، ونزل الأمير ، وحمل على محفة من الأبنوس المطعم بالذهب الوهاج ، ولما وصل إلى (دد — سنفرو) وأرشد إلى دار (ددى) ، وجده جالسا على حصير، أمام بيته، وقد أمسك خادم برأسه يملس عليه ، وأخذ آخر بقدميه يدلكهما .

فقال له الأمير : إنى أراك صالحا ، صحيح الجسم ، معافى من الأمراض ، مبرأ من أدواء الشيخوخة ، على الرغم من بلوغك من الكبر عتياً .

سلام الملك وسلامى عليك ، وتحيات جلالته ، وتحياتى لك ، لقد جئت إليك أدعوك إلى حضرة الملك ، وإلى حياة طيبة ، وعيشة راضية ، فى كنف جلالته ، إلى أن يلقى ربه .

فقال (ددى) « سلام عليك أيها العزيز عند والده ، رفع الملك قدرك ، وأعلى مقامك ، وألهم الله روحك سبيل نجاتها يوم القيامة ، مرحباً بك ، ياأبن الملك ، لقد جئت بالأمر المسموع المطاع ، فخذ بيدى .

فمد له الأمير يده ، وساعده على النهوض .

وسار (ددى) مع الأمير متوكأ عليه ، وتلاميذ (ددى) وحشم الأمير وخدمه يحفون بهما عن اليمين وعن الشمال ، ومن الأمام ، ومن الخلف ، ولما وصل الركب شاطىء النيل ، ركب (ددى) مع الأمير فى سفينته ، وخصصت سفينتان لتلاميذ (ددى) وأتباعه وكتبه .

---

(١) فى الاصل أنه يستطيع أن يأكل خمسمائة وخمسين رغيفاً من الخبز وفخذ ثور ، ويشرب بمائة جرة من الجعة وهذا مستحيل !

وسارت السفين فى النيل ، هابطة مع التيار نحو (منف) ، حتى وصلت ميناءها العظيم . ومثل الأمير أمام الملك ، وبشره بحضور (ددى) الساحر العظيم ، فابتهج الملك لقدومه .

وجلس الملك فى القاعة الكبرى ، ذات العمد ، وأمر بإدخال (ددى) .

فلما مثل (ددى) بين يدى الملك ، وكفر له ، قال له « أين كنت تكون ؟ ولِمَ لمْ أرك قبل اليوم ؟ » .

فقال (ددى) : لم أزل (لدد ـ سنفرو) ملازما حتى جاءنى رسول الملك ، وإن من يدعوه الملك ، عليه أن يلبي مهطعا ، وها أنذا قد أتيت حينما دعيت إلى حضرة جلالتكم . . »

فقال الملك « أصحيح ماسمعت أنك تحي الموتى ! وتعيد الرأس ، المفصول من جسده إلى مكانه فيندمل القطع ! وتدب الروح فى الجسد ! »

قال (ددى) « أجل أيها الملك السعيد » .

فقال الملك لقرابينه ، « ائتونى بسجين قاتل نفسا ، ومحكوم عليه بالموت ، لنجرب ذلك فيه . »

فقال (ددى) « مهلا يامولاى ! أليس الأفضل أن تعفى بشراً مثلنا ، من تجربة قد تنجح أو تخيب ، وتخطىء وتصيب ، وأن تكون فى حيوان أو طير .

فقال الملك « وإنه لكذلك . »

وجىء له بأوزة ، وفصل رأسها ، ووضع فى الطرف الشرقى من البهو ، ووضع جسدها فى الطرف الغربى .

وتلا (ددى) عزيمة سحرية ، فوقف جسد الأوزة على رجليها ، ومشى بخطى متئدة نحو الرأس ؛ وتحرك الرأس نحو الجسد ، حتى التقيا ، فارتفع الرأس ، واستقر فى مكانه ، وما كاد يفعل ذلك ، حتى صاحت الأوزة ، فإذا هى حية تسعى .

وجىء ببطة فأجريت العملية نفسها عليها . ثم جىء بثور وقطعت رأسه ، فأعادها

(ددي) إلى جسده ودبت فيه الروح ، وأخرج من البهو ، وهو يخور !

ولما انتهى الساحر من سحره ، قال له الملك ، بلغنى أنك تعرف عدد أقفال مقاصير معبد تحوت . »

فقال (ددى) «معذرة أيها الملك ، إنى لا أعرف عددها ، ولكنى أعرف مكانها » .

فقال الملك « وأين هى » .

قال ددى « إنها فى صندوق من الظران فى قاعات معبد أيون . »

فقال له الملك : « هل تستطيع إحضارها ؟ »

فقال (ددى) « ليس ذلك فى استطاعتى . »

فقال له الملك : «من يستطيع إحضارها إذن ، وقد عجزت أنت عن إحضارها» .

فقال (ددى) لا يستطيع إحضارها إلا أكبر ثلاثة الأطفال الذين فى بطن « رد — ددت » .

فقال الملك : ومن تكون « رد — ددت » هذه ؟

فقال (ددى) إنها زوجة كاهن رع فى بلدة « سخبو » وقد بشرها رع بأنها ستلد له ثلاثة أبناء يرثون أرض مصر ، ويتبوأون عرشها ، وسيصبح أكبرهم كاهن الشمس الأعظم . »

فعبس خوفو وبسر ، واستولى عليه وجوم لم يعهده من قبل ، وساوره القلق على أبنائه ، وخشى عليهم الهلاك (فتوسم ددى) ما فى نفس الملك فقال له : « لا تخف أيها الملك السعيد ولا تحزن . » فإن ابنك سيرث هذا الملك العظيم ، وسيورثه ابنه ، ومن بعدهما أحد أبناء رع الثلاثة (١) .

فسرى عن الملك ، وانبسطت أسارير وجهه . وأمر أن يضم (ددى) إلى

---

(١) يلاحظ أن نبوءة ددي ، وهى فى الحقيقة وضع بعض الرواة المتأخرين لم تصدق تماما كما سنرى ، إذا خلف خوفو ابنه ثم ابنه ثم حفيدله ثم ابن حفيده ، ثم ابنة حفيده خنت كاوس أو نيوتيكريس المشهورة .

حاشية الأمير (حردادف) وأن يعطى ألف رغيف من الخبز ، ومائة جرة من الجعة ، وثوراً . ومائة حزمة من السكرات ، كل يوم .

* * *

وامتد بخوفو العظيم العمر حتى أتم مايسر له من أعمال، زال رسمها وضاع فى زوايا النسيان اسمها ، إلا واحدا ، دام وسيدوم الى أن يشاء الله ، يدل عليه ، ويذكر الناس بقوته ، وسعة سلطانه ، وكفاية أهل زمانه .

وجاء خوفو أجله ، فهلع أهل القصر ، ومزقوا ثيابهم ، وعلت فى أنحائه أصوات النائحات ، وجلس الحاضرون من أهل بيته ، وخاصته ، ورؤسهم على ركبهم ، وأغلق البابان العاليان ، وأغلق الكهنة أبواب معبد فتاح والمعابد الأخرى ورفضوا تسلم النذور والقرابين (١) ، وتنادى الناس «أن دخل الإله الطيب أفقه، فطار إلى السماء ، واتحد مع قرص الشمس ، وامتزج بجسم خالقه» فساد أهل المدينة الاضطراب ، وشاع فى وجوههم الوجوم ، وملأ قلوبهم الأسى وخرجت النساء زرافات ، وسرن فى الشوارع ، مشققات الجيوب ، يلدن من صدورهن ، ويلطمن وجوههن (٢) ، ويحثون التراب على رؤوسهن .

وهرع الرجال إلى الساحات العامة ، ليشتركوا فى أحفال التأبين . ولبس الناس السواد ، وامتنعوا عن أكل اللحوم والفطائر وعن إقامة الولائم والأفراح، وأضربوا عن الاحتفال بالأعياد القومية ، وحلق لحاهم وشواربهم ورءوسهم . وانتقل الخبر الى الأقاليم ، فتجاوبت أصداء الحزن ، من كل مكان . وهرع إلى الحاضرة الأمراء والنبلاء والقواد المتغيبون عنها ، للصيد أو لأعمال رسمية .

وطير الخبر إلى أدنى البلاد وأقصاها ، فجاء إلى البلد الطيب حكام الأقاليم القريبة ، يحف بهم الجند والأتباع، ليمثلوا أقاليمهم فى حفل جنازة الملك الراحل .(٣)

---

(١) كان يستمر هذا الحال ٢٧ يوماً — الكافى لميخائيل بك شاروبيم ص ١٦٣

(٢) كانت النساء يخرجن كل يوم للندب — الكافى ص ١٦٣

(٣) هذا وصف قصد به ما كان يحدث عند موت أى فرعون من الفراعنة العظام

وحنطت جثة الملك خوفو،وأودعت فى التابوت الذى صنع من خشب الأرز المجلوب من لبنان خصيصاً ، وطعم بالعاج والأبنوس ، وكسيت بعض أجزائه بالذهب النضار، ثم نقلت فى النيل إلى آبجو (أبى دوس) ،حيث جاورت (أوزير) رب يوم الحساب أياما معدودات ، ثم عادوا بها إلى الأفق العظيم ، حيث ووريت فيه بعد أن حكم جمهور الناس له بالعمل الصالح ، وحسن السيرة [1] فى أثناء حياته .

٭٭٭

مات خوفو العظيم ، بعد أن استوثقت الرعية له ، وصفت له الدنيا ،وسما بمصر إلى قمة المجد وذروة السؤدد ، ونهاية القوة وغاية الكمال . وترك ملكا مؤثلا ، ثابت الأركان ، موطد الدعائم .

وخلف خوفو ابنه (ددفرع)

ويلوح أن سبيله إلى العرش لم يكن سهلا معبدا ، وأن الأجماع على توليته الملك لم يكن تاما [2] ، ولهذا رغب (ددفرع) عن الإقامة فى (من — نفر) واجتبى ضاحية أبى رواش ، شمالى الحاضرة ، مقاما له ، ومقرا لحكومته . وشرع فى بناء هرمه ، غربى مقعد تاجه ، على ربوة تنحدر نحوها ، وتشرف عليها .

ويرجح بعض المؤرخين أن (ددفرع) لم يكن له مضاء أبيه وهمته ، فجاء

---

(١) كان من عادات قدماء المصريين أنه إذا مات الملك ، اجتمع جم غفير من الناس فى صعيد واحد، وتذاكروا ما فعله الملك من خير أو شر، فان ثقلت موازين حسناته، طلبوا له من الاله الرحمة والغفران ، وحكموا بدفنه . أما إذا خفت موازينه حكموا بحرمانه من الدفن ... وفى ذلك يقول صاحب الكافى « ولم يكن للأهالى ولا لعامة الناس قط تداخل مع الملك فى حكم البلاد إلا فى هذا الأمر (يعنى الحكم له أو عليه بعد موته) ومع أن هذه المداخلة (كذا) ليست الا بالأمر الهين لاسيما بعد الموت، قد كانت نتيجتها من أهم النتائج وأكبرها وأشدها تأثيرا على بيت الملك . وقد حرم كثير من الفراعنة من الدفن ، لقبح سيرتهم فخاف خلفاؤهم العاقبة ، وأجهدوا النفس فى إصلاح العمل ، وسلوك مسالك العدل ، فرارا من هول هذا العقاب » — ص ١٦٣

(٢) يرجح سليم حسن بك قيام منازعات بين ولد خوفو بعد وفاته، ويرجع سبب تلك المنازعات إلى تعدد زوجات خوفو وتعدد أولاده غير الأشقاء منهن، كما يرجح أن ددفرع لم يكن حقه فى الملك قويا كأحد إخوته لظنه أنه ابن ملكة لوبية الأصل لايجرى فى عروقها الدم الملكى — أنظر مصر القديمة ج ١ ص ٢٩٥ — ٢٩٦

لذلك هرم الابن صغيرا حقيرا إذا قيس بهرم الأب لأنه لم يبذل فى بنائه غاية وسعه وطاقته .

ولعل النزاع الذى شجر بينه ، وبين بنى أبيه ، أدى إلى إيقاظ الفتنة ، وخلق القلاقل ، واضطراب حبل الأمور ، وعدم وفاء الرعية . وهذه أمور إذا اجتمعت اضعفت السلطان، وحدت من قوته وإن استمر طويلا أودت به .

ولعل (ددفرع) كان مضطرا إلى الاقتصاد فى النفقة على هرمه ، لقلة المال الذى ورثه عن أبيه ، الذى أنهك موارد الدولة فى تشييد هرمه العظيم .

ولعله كان ذا قلب قنوع ، فآثر راحة الناس على شهوة المجد والفخار .

ولم يمتد (بدد فرع) الأجل ، ولم تزد أعوام حكمه على الثمانية .

* * *

وخلفه أخوه خفرع الذى اتخذ (من — نفر) حاضرة لملكه .

وإنا نرجح أنه لم ينتقل مع أخيه الأكبر إلى أبى رواش ، لما شجر بين الأخوة من نزاع وتجاف ونفار ، بل ظل فى البلد الطيب فى عهد أخيه .

وكان خفرع كأبيه ندباً شميرا نهاضاً بجلائل الأمور ، فحاول أن يشأه ، فبنى هرمه بجوار هرم أبيه وإلى الجنوب الغربى منه ، فجاء مصلياً له .

وربما كان هذا السبب فى أن بعض المؤرخين وصمـــه بالظلم [١] فلقد روى هيرودوت أن المصريين القدماء كانوا يسمونه بالظلم والعسف ، ويشبهونه بأبيه . قالوا (إنه اقتدى بأبيه فى كافة أعماله وسخرهم فى بناء هرمه . فكرهوه كرهاشديدا كما كرهوا أباه ، حتى كانوا يودون أنهم لا ينطقون باسم أحدهما . . [٢]

(وذكر (ديودور) أن كلا الملكين (يعنى خوفو وخفرع) حرما من استدامة الدفن فى هرمهما ، وذلك لأن الرعية أخرجت جثتيهما من هرميهما ، وكسرت تابوتيهما ، والقتهما على الأرض إهانة لهما) [٣] .

---

(١) ولقد أوضحنا عند الكلام على الملك خوفو كذب هذا الزعم

(٢) أحمد كمال افندى (باشا) العقد الثمين ص ٧٢

(٣) » » » » »

وهرم خفرع، كما قدمنا ، أشبه الأهرام بهرم أبيه خوفو. ويبلغ ارتفاعه ١٣٨ مترا وطول قاعدته المربعة نحو ٢١٦ متراً ومساحتها نحو ١١ فداناً أى تبلغ ضعف مساحة أضخم بناء شيده الرومان بمدينة روما. ولو هدم واستخدمت حجارته فى بناء مدينة ، لبلغ عدد دورها ١٨ ألف ، تتسع لنحو ١٣٠ ألف نسمة .

وتكاد (من — نفر) لا تتأثر بانتقال بلاط الملك (دد فرع) منها إلى أبى رواش لقربها منها إذ أن المسافة بينهما لا تزيد على العشرة كيلو مترات : أى أقل بكثير عن المسافة بين القاهرة وأقرب ضواحيها[1] ، ولقصر مدة تغيب البلاط عنها .

أما (أبو رواش) فقد تأثرت بذلك تأثراً عظيما ، فقد شيد فيها قصر الملك ودور الوزراء ورجال البلاط وكثير من أصدقاء الملك المخلصين من أمراء ونبلاء ، ونشطت لذلك تجارتها ، ودبت الحياة فيها ، وأصبحت قبلة الأنظار ومحط الرحال .

ولكن ما إن إنتقل البلاط فى عهد خفرع إلى (من — نفر) حتى اضمحلت أبو رواش ثم فنيت أو كادت ..

وما لبثت (من — نفر) أن عادت سيرتها فى عهد خوفو العظيم ، وبدأ أهلها يشاهدون جيوش الوافدين إليها من كل صوب ، من مهندسين ، وبنائين ، ونحاتين وعتالين ، وغير ذلك ، من أصناف العمال الذين انتخبوا للاضطلاع ببناء هرم الملك.

وبعد أن فرغ الملك (خفرع) من تشييده هرمه ، وأضفى عليه كساء من الحجر الصلد الذى جيء به عبر النهر من محاجر طره ، والذى لايزال جزؤه الأعلى باقيا ، رغم فعل الطبيعة وعبث الإنسان ، وغطى قاعدته بالجرانيت الأحمر ، شرع فى بناء المعبد الجنائزى [2] ومعبد الوادى (٣) والطريق بينهما [4] .

ولقد شاهد «جان كبار» كتل الجرانيت الأحمر، التى تغطى قاعدة الهرم فهاله عظم حجمها، وقدر وزن إحداها بمائة وخمسين ألف كيلو جراما ، وقدر أخرى بثمانية وثلاثين ألف .

(١) يذهب بعض الأثريين إلى أن أبا رواش لم تكن إلاضاحية (لمن — نفر)

(٢) بنى شرق الهرم وقد كشف عنه حديثا . (٣) بنى بكتل ضخمة من الجرانيت الأحمر ، ولانزال نرى آثاره ملاصقة لأبى الهول . (٤) طول الطريق نحو ٦٠٠ متر .

ولما تم له ما أراد من عمارة البناء [١] ، عنى بفن النحت عناية كبيرة ، وحبب إلى المثالين الإجادة فيه فتنافسوا فى صنع تماثيل له ، سلم منها تمثاله البديع ، المصنوع من حجر الديوريت الصلد ، والذى يعد بحق من أجمل التماثيل فى العالم القديم والحديث وأروعها ، والذى يعده بعض الفنانين الثقات نصراً مبيناً للفن المصرى القديم ، وفوزا خالداً له [٢] .

وشاء الملك (خفرع) أن يشأ أباه ويبزه فى مضمار الخلود ، فأوحى إلى أمهر مثاليه أن يصمموا تمثالا لربه (حورأم أخت) على شكل أسد رابض ، رأسه رأس إنسان فى صورته ، فتخيروا صخرة طبيعية ، فنحتوه منها ، فجاء تمثالا فريدا ، لم يأت مثال من قبل بمثاله ، ولم ينسج من بعد على منواله [٣] . فلقد بلغ طول التمثال ، وهو مايسمى الآن أبو الهول ، ٤٦ متراً ، وارتفاعه من

تمثال الملك خفرع

(١) يرى بعض المؤرخين أن خفرع لم يمكنه النزاع الذى شجر بينه و بين بنى أخيه (دد فرع) من تشييد أهرام لزوجاته كما فعل أبوه (خوفو) من قبل وأخوه (منكاورع) من بعده

(٢) وصفه بعض الفنانين بأنه ـ a triumph for all Ages

(٣) نقصد به تمثال أبى الهول الذى ثبت أنه نحت فى عهد (خفرع) وفى صورته ولقد اختلف فى تاريخ نحته ، فقيل إنه نحت فى عهد ماقبل الأسرات ، وقيل إنه نحت في عهد الملك (خوفو) ـ

أسفل زراعيه المبسوطتين إلى قمة رأسه ٢١ متراً، وعرض وجهه ٤ أمتار، وطول أنفه متر ونصف متر، وطول فمه متران وطول أذنه ١ ١/٣ متر، وإذا وقف رجل فارع الطول على أذنه، ورفع ذراعيه، لا يصلان إلى أعلى رأسه .

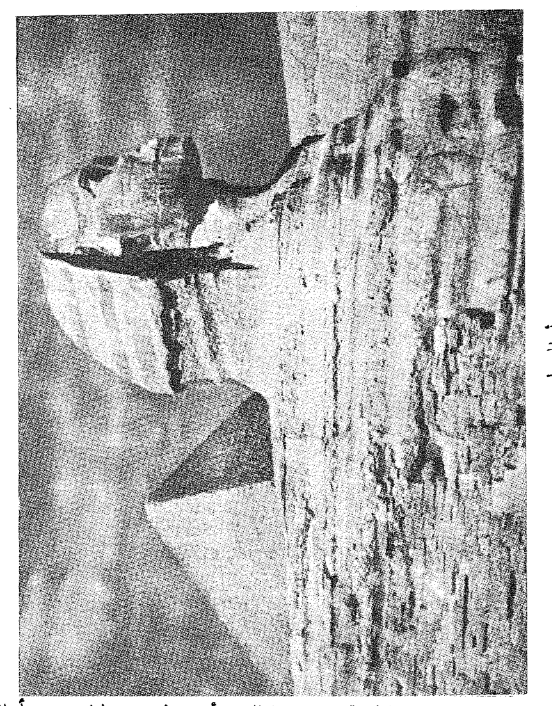
وحين أتمه المثالون نحتوا معبداً له بين كفيه، كان يصعد المتعبدون إليه بدرجات [١] ومر الزمن مر السحاب، وأبو الهول جاثم لا يريم، شاخص ببصره لايحول، فيرى إدالة الأسرة الخامسة من الرابعة، والسادسة من الخامسة، .. ثم يشاهد ـ والحسرة ملء فؤاده ـ الفتن العمياء والنكبات الجسام، التي اصابت مصر في أول عصر من عصور الظلام، فكادت تودى بكل ما أنتجته عقول علماء العصور السابقة وفنانوها ؛ ثم يغمض عينيه عامدا، حتى لاتقرحها الحال التعسة التي وصلت إليها مصر، ثم يفيق على صوت قعقعة سلاح جنود الأسرة الثانية عشرة، التي أعادت النظام والأمن في البلاد، وقد هزته جلبة حياة الأمة الجياشة في عهدها الزاهر، ثم استنام كره أخرى، حين أغطش ليل مصر واصطلحت عليها الخطوب المدلهمة، فتردت البلاد في هوة الفوضى وحمأة الإنقسام، واهتبل الهكسوس الفرصة فغزوا مصر وقتلوا رجالها . واستحيوا نساءها، وخربوا الدور والقصور، ودمروا المعابد، وطردوا أمراء مصر وكهنتها . وأهل المعرفة فيها شر مطرد . ثم فتح عينيه ليرى وهو فـــرح، وصدره منشرح، كتائب ملوك طيبة الخرساء تخرج العدو الدخيل من أرض الوطن، وجيوشهم الجرارة وهي ذاهبة لقتال أمم آسيا، وهي راجعة تجرر ذيول النصر .

ودأبت الرياح السافية طول هذه المدة الطويلة تهب نحوه (والهاء تعود على أبي الهول) حتى غطته أو كادت . وجاءه الأمير تحوتمس الرابع، حفيد تحوتمس الثالث، أعظم ملوك مصر الفاتحين، وأول قادة الجيوش العباقر في العالم .. جاء الأمير

---

(١) وفي ذلك يقول سليم بك حسن، في كتابه مصر القديمة جزء أول ص ٣٠٣ « . . ولكن الواقع أن هذا التمثال (يعني أبا الهول) يمثل الشمس عند الغروب، وهي تعد أكبر المعبودات عند المصريين . وأن هذا المعبد الذي أنشىء أمامه، أقيم خاصة لعباده، ولايمكن أن يكون قد أقيم لعبادة (خفرع) إذ أنه قد أقام لنفسه معبدين . ويقصد المعبد الجنائزي ومعبد الوادي »

ليصيد الغزلان التى كانت تكثر بجوار أبى الهول ، ولما أنهكه اللغوب جلس يتفيأ ظله ، فأخذته سنة من النوم ، فرأى كما يرى النائم — الإله (حورمخى خبرع توم) أى (الشمس المشرقة الموجودة الكاملة) يطلب منه أن يزيل الرمال التى تراكمت حوله ، عندما يلى العرش ، ولم يكن الأمير وليا للعهد [١] .



أبو الهول

وصدق الإله وعده فتولى تحوتمس الرابع الملك، وأسرع فى تنفيذ ما طلب منه ،فأزال

(١) سليم بك حسن — مصر القديمة ، الجزء الأول ص ٣٠٦

الرمال من حول التمثال ، وبنى سورا من اللبن لدرء الرمال عنه ، وقدم له القرابين ولوحة تذكارية [١] ، لا تزال باقية . وفى ذلك يقول أحمد باشا كمال .

« ويشاهد فى صدر أبى الهول حجراً ، ارتفاعه أربعة عشر قدما . . وبأعلاه صورة الملك تحوتمس الرابع ، مرسومة جهة اليمين على هيأة أنها تعبد أبا الهول ، وعلى يسارها رسم الشمس ، ثم يلى ذلك نقوش مؤرخة فى اليوم التاسع عشر من شهر هاتور ، من السنة الأولى من حكم هذا الملك ، تفيد أنه لم يوفر شيئاً (لم يدخر وسعاً) لتحسين مدينتى (من — نفر) (وأيون) (عين شمس) ولوقف الأوقاف على المعابد ، ولانشاء الهياكل ، وعمل التماثيل للمعبودات . . . ومن أجمل العبارات المنقوشة على هذا الحجر خطاب منصوص فى آخره ، أنه على لسان أبى الهول يخاطب به الملك ويقول له : « أكلمك بنفسى ، كما يكلم الأب ابنه فانظرنى (كذا) وسرح الطرف نحـــوى ، يانحوتمس ياولدى . أنا أبوك (حورمخى خبرع توم) أى الشمس المشرقة الموجودة الكاملة ، أعدك بأن تملك سائر الأرض فى طولها والعرض ، وأن تعطيك الأمم جزياتها العديدة ، ويطول عمرك سنين مديدة [٢] .

وظل الفراعنة بعد تحوتمس الرابع ، يحجون إلى أبى الهول أى الإله (حورأم أخت) للتعبد ، وزاد رمسيس الثانى ، بناء مصر الأعظم ، فرمّ أبا الهول وأصلح ما حتته عوامل الطبيعة من أجزاء جسمه المختلفة وعرته .

ووفد قوم من عرب آسـيا على مصر ، واستقر بهم المقام على مقربة من أبى الهول [٣] . ولا يبعد أن يكون أولئك القوم حجاجا له ، قصدوا بسكناهم بجواره

---

(١) يقول سليم بك فى كتابة مصر القديمة ص ٣٠٥ (دلت البحوث التى حول هذا التمثال على أن ملوك الفراعنة منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة حتى نهاية العهد الرومانى (كذا) كانوا يزورون هذا المـكان المقدس ، وكذلك كان يتقرب الأهلون إلى أبى الهول بتقديم القرابين واللوحات التذكارية كما كانوا يتقربون إلى الاله أوزير فى العرابة المدفونة)

(٢) أحمد كمال: العقد الثمين ص ٩١

(٣) ولعل قرية الحارونية التى تبعد عن أبي الهول لنحو كيلوين ونصف كيلو ، والتى تقع فى جنوبه الشرقى ، هى القرية التى كان يسكنها أولئك الأسيويون ، أو قرية أحدثورثت منها اسمها ، ولا يبعد أن يكون سكان قرية الحارونية الحاليه م من نسل الحجاج الأسيويين :

التقرب والبركة والثواب ، لأنهم يعبدون فى بلادهم إلها يطلقون عليه اسم حورون أوحول ، ويرسمونه على هيئة صقر . ولما كان تمثال خفرع الهائل (أبو الهول) يسميه المصريون حور أم أخت ، أى حور الأفق ، وكان حور يمثل بصقر ، فلعلهم سمعوا به وبتقديسه فى مصر فجاءوا إليه حجاجا وفضلوا الإقامة بجـــواره على الرجوع إلى بلادهم .

ولعلهم جاءوا مصر تجاراً ، فسمعوا بالإله حور وصورته وصفاته ، والتى لا تختلف فى كثير أو قليل عنها فى إلههم فجوا إلى تمثاله ، وأقاموا فى جواره ، وسرعان ما أطلق على الحفرة التى فيها أبو الهول اسم (برحول)[1] أى بيت حول ، ولم تلبث أن حرفت بعد ذلك إلى أبى الهول ...

وجاء (خفرع) أجله و .... وخلفه ابنه (منكاورع) على عرش مصر . ويلوح أن سبيله إلى العرش لم يكن سهلا معبداً ، بل كان محفوفا بمكاره المشاحنات بينه وبين ولد عمه (ددفرع)

وعلى الرغم من طول مدة حكمه[2] فإنه لم يشيد إلا هرماً صغيراً جداً ، إذا قيس بهرمى أبيه وجده ، إذا أن إرتفاعه لا يعدو ٦٢ متراً ، وطول قاعدته لا يزيد على ٢٥ ر ٩٨ مترا ، ومساحته أكثر من فدانين بقليل[3] ويرى بعض الثقات أن الهرم الثالث مثال لدقة البناء ومتانته ، وأن مهندسه استعاض عن ضخامته بجماله . ويعزو بعض المؤرخين القدماء صغر حجم هرم الملك (منكاورع) إلى عدله وتقواه ، ورأفته برعيته ورغبته عن تسخيرهم فيما لا يعود عليهم بالنفع . ويرون أنه (كان من حلمه إذا تظلم له أحد من حكم جائر ، غمره بالإحسان لكظم غيظه) ومن ورعه وتقواه ، أنه أمر ابنه (حوردف) أن يطوف على المحاريب المصرية يصلح ما تخرب منها وينشىء فى المدن غيرها . فتوجه امتثالا لأمر أبيه

---

(١) بريا باللغة المصرية القديمة معناهابيت

(٢) حكم أكثر من عشرين عاماً

(٣ ، ٤) أحمد باشا كمال — العقد الثمين ص ٣٣

فأصلح وشيد . ومن طريف ما يروى أن (حورددف) عثر فى أثناء إصلاحه أحد المحاريب، فى مدينة الأشمونين، على لوح من الرخام، منقوش عليه حكم ومواعظ بلون أزرق ، فأحضره إلى والده ، فرحا مسروراً ، وقدمه إليه ، بصفة أعجوبة) ، فسر به الملك ، وأمر أن تنشر تلك الحكم والمواعظ بين الناس. وضمت بعد ذلك بقرون عدة إلى كتاب الموتى المشهور . . ويلوح أن معانيها المرادة عمى عنها الناس فى العصور التالية ، بدليل قول كاتب من عصر الرعامسة إلى رفيقه :

« تأتينى بأسرار كبيرة (أى بمواعظ وحكم) عن الأمير (حورددف) وتقول لى إنك ماعلمت عنها طيبا ولا رديئا ، (وكأنها) سور منيع (لا يمكن تجاوزه ، وكيف تقول ذلك مع أنك كاتب ماهر ، فائق على أقرانك ، فطن ، ولك فكر رائق وكلام موزون . إذا قلت كلمة كانت أعظم من ثلاث كلمات (صدرت من غيرك[1]) .

وكان يلقبه أهل زمانه بصديق الآلهة تارة ، وبالقديس العادل تارة أخرى ، وينسبون إليه إعادة فتح المعابد والعود بالناس إلى الصلاح والاستمساك بالعروة الوثقى ، وحثهم على تقديم القرابين والضحايا إلى الآلهة .

ومن طريف ما يروى عنه، أن عرافا تنبأ له بأنه لم يبق من عمره إلا ست سنوات، فلم يحزنه قوله ، وأمر أن توقد الثريات والقناديل والشموع ، عندما تجنح الشمس للغروب ، وتظل موقدة حتى مطلع الفجر ، فيحول الليل نهاراً ، يقضيه فى مرح ولهو وطرب وقصف وسمر ، وبذلك ، استبدل اثنتى عشر سنة بست سنوات .

وهذه القصة إن صدقت تنبئنا بأن القديس الورع لم ينس نصيبه من الدنيا .

---

(١) احمد باشا كمال : العقد الثمين ص ٣٣ .

الفصل السادس

مات الإله الطيب منكاورع، فبكاه الناس لورعه وتقواه وعلمه وحكمته، ورأفته بعباده المخلصين، وخلفه ابنه شبسكاف.

توج شبسكاف في معبد الفتاح في الحاضرة العتيدة (من — نفر)، ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلا، حتى صبت نفسه نحو الجنوب، فهجرها إلى حيث شيد قصره، وأقيمت دور لوزرائه ومشدى أذره من أمراء البيت المالك وكبار رجال دولته وقواده المخلصين لعرشه، ومساكن لجنده وحشمه وخدمه. ثم شرع في بناء أفقه غربي حاضرته الجديدة.

ولم يبن شبسكاف أفقه على مثال أهرام أبيه وعمه وجده، هرما كاملا مستوى الجوانب، ولكنه بناه على هيأة مصطبة ضخمة فوقها تابوت. ويطلق عليه الأهلون الآن اسم مصطبة فرعون.

ولقد زار هيرودوت هرم شبسكاف، فألفاه محتفظاً ببعض روائه ونقوشه، وترجمت له بعض نقوشه، فدونها، نقتطف منها ما يأتي: «لا تحقروا هرمي، ولا تقللوا من شأنه، إذا ما قرنتموه بالأهرام الأخرى، المبنية بالحجارة، فإن فضله عليها كفضل المشترى على جميع الكواكب. ولقد بنيته بآجر متخذ من خشب، وضع في مستنقع حتى سرى فيه غرينه وشبعه.

ومما كتبه هيرودوت عن الملك شبسكاف، مستقياً علمه عنه من الكهنة (أنه أحد الفراعنة الخمسة المشرعين، وأنه رصد الكواكب، ونبغ في علم الهندسة، وأنه أدخل بعض الإصلاح في قواعد الدين المصري القديم وشعائره[1]

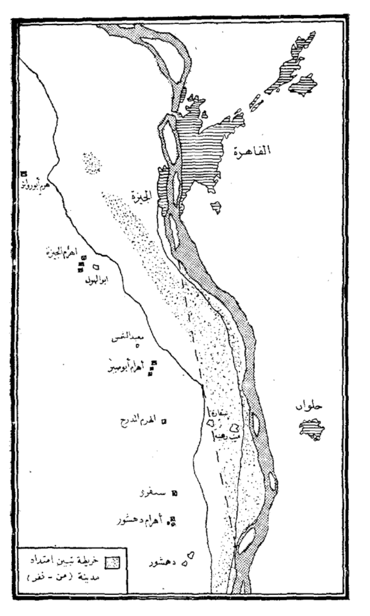
على أن بنا أن نتساءل عن السبب في هجرة ذلك الفرعون إلى الجنوب[2] مخالفاً

---

(١) أحمد كمال باشا العقد الثمين . . . ص ٣٤

(٢) هجر مقام أبيه وجده وبنى قصرة وأفقه جنوبي منف على مقربة من دهشور حيث توجد مصطبته الآن .

فى ذلك أسلافه الأقربين ، وعاكساً النمو الطبيعى للحاضرة العتيدة ، التى ما فتئت مذ نشأتها تمتد زاحفة نحو الشمال ، حيث الجو أكثر اعتدالا ، وحيث مفرق فراع النيل ومفترق الطرق والمسالك !



فهل كان ذلك منه بعدا عن نفوذ كهنة عين شمس ، وهربا من سيطرتهم ، التى بدأ عنقها يشرئب ويتطاول فى عهد خوفو العظيم ، ووضعت أنفها فى كل أمر من أمور الدنيا والدين فى عهد خلفائه ، فلم يستطع شبسكاف معها صبرا ، فهجر (من - نفر) كما قدمنا لقربها من عين شمس ، مقرهم ومقام إلههم ، وشيد حاضرته فى الجنوب كما ذكرنا ، وقام بإصلاح دينى كما ذكر هيرودت .

وإنا نرجح أن إصلاحه الدينى كان مقصوراً على حذف بعض الشعائر التى أدخلها كهنة رع على دين الفتاح . كما يغلب على الظن أن اسمه كان يحمل اسم « رع » الذى كان يبارك أسماء أبيه (منكاورع) وعميه (دد فرع وخفرع) فاستبدل به اسما آخر ، ليس منه حرف واحد من اسم رع ، كما فعل ذلك اخناتون بعده بنحو ألف وخمسمائة سنة !

كذلك أبى شبسكاف أن يستقر فى مثواه الأخير تحت أفق هرمى رمز الشمس

فبناه على الهيئة التي وصفناهاها.

هجر شبشكاف (من نفر) وتأثرت بهجرته منها في عمارتها وتجارتها وفي حياتها الاقتصادية والاجتماعية أيما تأثر ، ولكنه لم ينسها في برنامجه المعماري : فقد جاء في العقد الثمين أنه (أمر ببناء الإيوان الغربي الموجود في معبد الفتاح ، أعظم معابدها وأقدسها ، وهو أعظم إيوان مزين بالصور والرسومات الغربية ، والنقوش والأشكال العجيبة ، وكان يقصد بذلك التفوق على من سلفه من الملوك في التعمير) .

وطار شبسكاف إلى أفقه حيث لحق بربه ، ولم يخلف ولداً يرث الملك من بعده فاضطرب حبل الأمور ، وتنازع آل بيته على العرش ، وظهرت في أثناء هذا التنازع قوة كهنة الشمس ، الذين عملوا جاهدين على تنحية بنات الملك الراحل وتولية أخته خنت كاوس ، التي يزعم بعض المؤرخين أنها تزوجت أحد كبار كهنة الشمس لتجمع بين قوة الدين الغالب ، وقوة الدم الملكي بينما يذهب البعض إلى أن زواجها بكاهن الشمس كان سابقا الفتنة التي أعقبت موت أخيها ، لا بل وسابقا لتوليتة .

وقد يكون هذا الزواج حلا رآه أحد عقلاء البلاد وأصحاب الرأي فيها ، حسما للنزاع ، وإنهاء للقلاقل والحروب ، التي تأكل كل يابسة وكل خضراء .

وعلى أية حال ، فلا يزال يحيط بتاريخ خنت كاوس بعض الغموض حتى بعد كشف هرمها [1] !

فهل هي زوج الكاهن التي ذكرها ديدي الساحر في قصته ، التي قصها على الملك خوفو ، والتي حين جاءها المخاض أرسل إليها رع الإلهات إيزيس وصاحباتها ، لتسهيل ولادتها ، والتي انجبت أبناء رع الثلاثة ، مؤسسي الأسرة الخامسة [2] .

وإذا كانت كذلك فكيف خلا أسم ولي عهدها أو سركاف المؤسس الحقيقي للأسرة الخامسة من أسم رع ؟ إذا كان هو أول من تولى الملك من أبناء رع الثلاثة

---

(١) كشف هرمها الرابع سليم حسن بك .

(٢) أنظر قصة ددى صفحة ٨١ .

أم هل هى الملكة نيتوكريس التى وصفها ما نثون ، المؤرخ المصرى المشهور بالشقراء ذات الخدود الحمراء ، وأنها كانت أشهر نساء أهل زمانها حسنا وجمالا ، وقدا واعتدالا . وأوفرهن فضلا وكمالا ، والتى حيك حول إسمها أقاصيص عجيبة ، منها أنها لما توالت الملك دبرت مكيدة للأخذ بثأر أخيها (١) الملك الراحل من قتلته ، تدل على حسن تدبير ، وسعة حيله ومكر ودهاء ، وذلك (أنها بنت محلا تحت الأرض ، له سرداب موصل إلى النيل ، وأعدت فيه وليمة ، دعت لها خلقاً كثيراً من بينهم قتلة زوجها وأخيها ، فلما انهمكوا فى لذات المآكل والمشارب ، أجرت عليهم ماء النيل من السرداب فاغرقتهم جميعاً .

والذى يحملنا على التساؤل الأوصاف المتشابهة التى توشك أن تكون مطابقة التى وصفت بها الملكتان : خنت كاوس ونيتوكريس ، ونسبة تكملة الهرم الثالث ، أى هرم الملك مكاروع وكسوته بالجرانيت لكلتيهما .

ومهما يكن من أمر الملكة خنت كاوس ، فقد كانت مليكة همامة ، اضطلعت بأعباء الملك فى ظروف غير مواتية ، وأنجت البلاد من الفوضى التى أعقبت موت أخيها .

ورأت خنت كاوس ، بعد أن خلص لها الملك ، واستتب لها الأمر ، أن تهجر مقعد تاج أخيها ، وأن تشيد قصرها وهرمها فى ضاحية (من - نفر) الشمالية (منطقة الجيزة الآن) حيث أقام أبوها وجدها .

وشيدت خنت كاوس هرمها على طراز الأهرام الثلاثة العظيمة ، والذى أقامته بجوارها . وقد كشفه سليم حسن بك وأسماه الهرم الرابع ، وهو هرم صغير طول قاعدته ٤٥ متراً ، وارتفاعه ٣٥ متراً ، أى أقل من ربع ارتفاع الهرم الأكبر بقليل . وهو مكون من قاعدة مربعة فوقها تابوت ، وهو لذلك شديد الشبه بهرم أخيها شبسكاف .

---

(١) ليس بعيدا أن تكون خاتمه حياة سبشكاف القتل لما أحدثه من تغيير فى الدين والحاضرة ولما أعقب وفاته من اضطراب وفوضى .

ويرى البعض فى هجرها مقعد تاج أخيها تقرباً إلى (رع) وسدنة بيته زلفى ، ولكن يصعب عليهم تفسير صدوفها عن بناء هرمها هرماً كاملا وهو من رموز الشمس وعلاماتها ! .

وحين أتمت كاوس بناء هرمها وحفلت به ، شيدت للكهنة الذين ظاهروها مدينة بجواره . وقد أزيح فى السنوات الأخيرة الردم عنها .

وإن بياض وجه الملكة خنت كاوس ، واحمرار وجنتيها وشعرها الذهبى ، كل أولئك أدى إلى الخلط بينهـا وبين الأغريقية الحسناء ، المشهورة برودوبيس الشقراء ، محبوبة الفراعنه . والتى جاء فى الشائعات المستفيضة لهيرودوت قصة عنها، كان نسيجها من خيوط خيالية . يمكن إجمالها فيما يلى : —

كانت تسكر رودبيس الشقراء فى نقراطيش ، فأرادت أن تغتسل ذات يوم ، فنضت ازارها وخلعت حذاءها ونبذته فى العراء ، فانقض عليه نسر واختطفه ، وطار به إلى (من نفر) فألقاه فى حجر الملك — وفى رواية أن الريح حملته إلى حجر الملك — فأخذ الملك بجمال منظره ، ودقة صنعه ، وملاءمة حجمه ، فأرسل رسله يجوسون خلال الديار ، ينشدون صاحبته وهو معهم ، وبعد لأى ما ، عثر عليها وجئ بها إلى الملك ، فبهره جمالها ، فبنى بها ، وشغف بحبها ، وعاشت معه ما شاء الله لها أن تعيش ، فى رغد من العيش ، وبحبوحة من العز .

ولما قضت ، حزن عليها حزناً شديدا ، وشيد الهرم الثالث ليكون مثواها الأخير .

وما أشبه هذه الخرافة بقصة سندرلا وحذائها الصغير .

ولم تلبث تلك الشائعات عن رودوبيس ، التى هى فى الأصل ظلال ممسوخة من الحقائق — أن غيرها النقل ، فصارت رودوبيس ، بعد أن ثوت فى قبرها ، آلافا من السنين ، تهيم فى الصحراء المجاورة لقبرها ، فى الليالى المقمرة ، باحثة عن جائل تغويه ، أو عابر سبيل تستهويه بفاتن جمالها ، ثم لا تخلى سبيله إلا فاقدا صوابه ، هياماً بها ، وشغفا بحبها .

وقد وصلت هذه الشائعة إلى الشاعر الإنجليزى توماس مور ، فذكرها فى شعره ، وأطلق على رودوبيس سيدة الهرم .

الفصل السابع

ذهبت الأسرة الرابعة بأمجادها المؤثلة، التي ليس كمثلها أمجاد، وعصرها الذهبي الذي لم يلحقه عصر، من قبله ولا من بعده، في عز الملك، وبهاء السلطان، وقوة الدولة، ومنعة الوطن. وانتهت بامرأة شجاعة همامة، ذكية الفؤاد، نيرة البصيرة، استنجدت بأمضى وأفتك أسلحة بنات جنسها الكثيرة: الختل والدهاء والكياسة، لتثأر لأخيها، ولتقضى على أسباب الفوضى التي أوشكت أن تسود البلاد عند تسلمها مقاليد الأمور، وبذلك أرجعت الطمأنينة إلى النفوس.

وحين خلا مكانها، تربع فيه مؤسس الأسرة الخامسة الملك وسركاف.

وقد أختلف المؤرخون في نسبته إليها، فقيل إنه كاهن عون الأعظم الذي تزوجت منه، حين رأت بثاقب عقلها، ونافذ بصيرتها أن ذلك من حزم الأمور، لارتفاع شأن كهان «رع»، وعلو سلطانهم، وإنفضاض الناس إلى دينهم. وقيل إنه ابن لها وله، وإنه أكبر أبناء رع الثلاثة، الذين أشرنا إلى قصة ولادتهم في الفصل السابق.

وسواء أكان وسركاف كاهن «رع» الأعظم أم ابنه، فقد غلبت عليه النزعة الدينية منذ توليه الحكم، فوهب معبد الشمس في عون هبات كثيرة، وأوقف عددا من الضياع عليه، ثم لم يلبث أن شيد في أبي صير أول معبد من معابد الشمس المشهورة، والتي سبق وصفها.

وجاء بعد وسركاف فراعنة شداد، ألحق اسم رع عجزا لأسمائهم، وعسى أن يكونوا أبناءه الذين نسبتهم القصة إليه! وقد حذوا حذو رأس أسرتهم في إقامة معابد للشمس بجوار معبده.

ولأمر لا نعلمه أختار أبناء رع أباصير، وهي إحدى ضواحي منف، مقعدا لتاجهم، ومقرا لملكهم، ومكانا لمعابد إلههم، ودارة لأهرامهم، أي لمثواهم الأخير.

ولهذا الأمر الخفي عنا ، لم يستبدلوا بها أيون ، مدينة « رع » المقدسة ، ومأوى كهانه ، وسدنة معبده الأكبر !

ويرى البعض فى ذلك دليلا على أن الملك جاء إليهم منقاداً ، لم ينافسهم فيه أحد ، ولم يناقش حقهم فيه إنسان ، إذا لو كان الأمر غير ذلك لهرعوا إلى مدينة الشمس ليعتزوا بسيوف أهلها ويلوذوا بحمى إلهها !

ولعل ذلك كان لاعتقاد الناس أنهم أبناء « رع » ذلك الإله الذى بدأت منزلته بين الناس تسمو ، منذ عهد الملك العظيم « خوفو » !

ومن الغريب أن عبادة الشمس ، أى عبادة الإله (رع)، كانت تظهر على العبادات كلها فى أواخر عهود مصر الزاهرة المجيدة ! فقد غلبت على الأديان كلها أول مرة حينما توحدت مصر . واتخذت مدينة الشمس حاضرة لمصر المتحدة . وما أن انقسمت مصر على نفسها ، وعادت سيرتها الأولى مفككة العرا ، مهيضة الجناح ، حتى استكان (رع) ، وتقلص ظل دينه ، وضعف نفوذ كهان معبده ، وارتفعت مكانة آلهة المقاطعات ، وتبوأ ، بعضهم مكانة الصدارة . ثم بدأت عبادة الشمس تقوى من بعد ضعفها فى عهد الأسرة الرابعة ، أى فى أزهى عصور مصر الفرعونية كلها ، فى رأى كثير من المؤرخين .

ثم بلغت قمة عزها ونهاية مجدها فى عهد الأسرة الخامسة ، التى أدعى الكهان لملوكها بنوة « رع » الجسمانية كما قدمنا ، ثم لم تلبث أن هوت من عليائها فى زمن أول عصر من العصور المظلمة فى تاريخ مصر ، ذلك العصر الغامض (بين الأسرة السادسة والحادية عشرة) الذى ساد فيه الجهال ، واضطرب فى أثنائه ، حبل الأمور وأهدرت الكرامات والقوانين والنظم المرعية ، وتنكر الناس للولاة ، وذهب العرف بين الإله والناس ، ثم عادت مرة أخرى ، أظهر وأقوى فى عهد الملك المصلح أخناتون ، أى إثر بلوغ مصر أوج قوتها فى أيام الملك الفاتح الغلاب تحوتمس الثالث وابنه منوفيس العظيم .

ولعل ذلك راجع إلى أن مصر كلما اتحدت كلمتها ، واشتد ساعدها ، وتخطى

سلطانها حدودها الجغرافية واتصلت بجيرانها من قريب أو بعيد ، شعرت بأنها أصاحت قوة عالمية ، تعنيها شئون غيرها كما تعنيها شئون نفسها ، ووضح لها أن آلهتها المحليين الصغار ، الذين قل أن تتعدى شهرتهم حدود مقاطعاتهم المختلفة ، بله حدود القطر كله ، ولم يعودوا أهلا لمركزها الجديد ، ولم يصبحوا صالحين لفرضهم على قوم لا يحســـون بهم ، فعمدوا إلى الشمس لوضوحها وخلودها ، ولأنها لا يجهل شيئا منها أحد ، ولا يعذب علمها عن إنسان عمدوا إليها فعبدوها ، وتغنوا بعظمتها وفضلها على الخلق أجمعين !

وساد البلاد فى عهد هذه الأسرة المقدسة السلام ، وعم الناس الرخاء ، وشعر ملوكها بالقوة ، فأكثرو من إرسال السيارات والبعثات التجارية فى البر والبحر إلى الأقطار الأجنبية [١] فجاءت بمنتجاتها من خشب للبناء وأبنوس وعاج وذهب ولا زورد وعقاقير طبية ومواد عطرية .

وعلى الرغم من أن ملوك هذه الأسرة كانوا فى رأى الطبقة العالمة من معاصريهم من نسل الإله (رع) ، فكانوا لذلك عند أنفسهم ، وفى نظرات أولئك العلماء المعاصرين ملوكا بالحق الإلهى [٢] على الرغم من ذلك فقد كانوا من أفضل الملوك عدلا وإنصافا . وأكثرهم حدبا على رعاياهم ، وبرابهم وأرعاهم لحقوقهم ، وأسرعهم إلى إظهار الود للمخلصين المجدين من أتباعهم ، والعطف على من مسهم الضر بسببهم ، والأسف لما يبدر منهم من أذى لأحد من الناس وليس أدل على ذلك من القصتين الآتيتين !

١) قصة « رع ور » :

كان الملك (نفر إركارع) وفى معيته « رع ور [٣] » كاتم أسراره ومدير قصره [٤]

---

(١) من أولئك الملوك العظام الملك سحو رع ، والملك أسيسي .

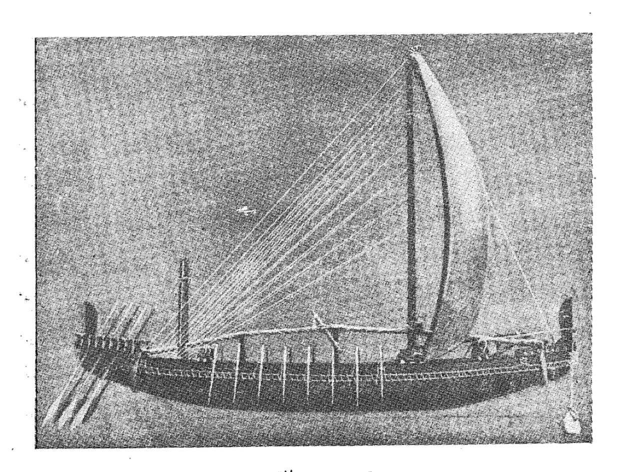
(٢) انظر قصة حرداف لأبيه خوفو .

(٣) كشف عن مقبرة « رع ور » سنة ١٩٢٩ م جنوبي أبى الهول وهى فى رأى علماء الآثار أكبر مقابر الدولة القديمة التى كشف عنها حتى الان لأنها تحوى خمسين حجرة وجد فيها نحو مائة وعشرين تمثالا .

(٤) كان « رع ور » يحمل نحو ثلاثين لقبا من ألقاب الدولة .

فى حفل من الأحفال الرسمية ، فأصابت عصا الملك ساق « رع ور » عفوا. فانزعج الملك لهذا الحادث وألمت نفسه له ، وأبدى أسفه الشديد « لرع ور » أمام الحاضرين ، وصرح أمامهم بحبه له وعطفه عليه ، قاصدا بذلك إبعاد شبهة وقوع الحادث عمدا !

ولم يكف الملك اعتذاره الصريح أمام الملأ ، فأمر بنقش هذا الحادث بفصه ونصه على حجر ، ووضعه فى قبر « رع ور » لتعرف الأجيال اللاحقة مقدار حب الملك له وعلو مقامه عنده !



سفينة من سفن الملك سحورع

(٢) قصة وشبتاح.

كان وشبتاح وزير الملك «نفر إركا رع » ، وكبير مهندسيه متفانيا فى خدمة مولاه الملك ، لا يريح ولا يستريح إذا كلفه جلالته بإنجاز عمل من الأعمال.

ولقد صدرت إليه إرادة الملك الصالح بإقامة عمارة هامة ؛ فشمر تشمير من لا يألو جهدا ، وانكب يعمل على اتمامها دائباً غير مفتر.

وجاء الملك ذات يوم ، ومعه بعض أفراد أسرته ، فى ركب حاشد ، ليشاهد البناء ، فسر ومن معه برؤيته ، وأعجبوا به جميعاً أيما إعجاب ، وأثنوا عليه ثناء حسناً . بيد أن العمل المتواصل كان قد هد حيل الوزير المخلص وأنهك قواه ، وأضعف جسمه وأضناه . فخارت قواه فجأة ، وخر مغشياً عليه أمام جلالة الملك ! فانزعج جلالته ، وهلعت قلوب من معه !

وأصدر جلالة الملك أمره بأن يحمل المهندس الكبير إلى القصر الملكى . وحينما بلغوا القصر ، سارع الملك إلى فتح صندوق خاص ، وأخرج منه لفائف من أوراق البردى ، وتصفح بعضها بسرعة ، وتناول بعض العقاقير التى دلته عليها الأوراق دواء المثل دائه ؟ وحاول إسعافه بها ، لأن جلالته كان عالماً بالطب وعلومه .

ولكن محاولة الملك جاءت بعد الأوان ، فلم يجد المصاب شىء ، لأن أجله كان قد جاء . فحزن الملك لموته حزنا شديداً ، وصلى لربه رع ، واستنزل عليه شآبيب رحمته !

ثم أمر أن يصنع له تابوت من خشب الأبنوس المرصع بالذهب . . . ولم يحدث أن صنع مثل هذا التابوت لمثله من قبل !

ولم يكف الملك ذلك ! فحضر عملية تحنيط جثته مبالغة فى تكريمه ، وإظهاراً لعطفه عليه ، وتقديراً لإخلاصه .

هذه أخلاق الفراعنة العظام الذين لم يقر فى أذهان العالم عنهم إلا الصرامة والشده وإن صح المثل القائل : إن الناس على دين ملوكهم فإننا نجزم بأن مستوى أخلاق المصريين فى عهد هذه الأسرة كان عالياً ، وأدب سلوكهم كان راقياً ، وشعورهم كان رقيقاً !

وليس أوكد لذلك من نصائح الوزير « فتاح حتب » لابنه ، فهى من غير شك مرآة صافية لأخلاق معاصريه .

اسمع لفتاح حتب ينصح ابنه ، بعد مثوله بين يدى جلالة الملك أسيسى

ملتمسا التعطف بإحلال ابنه محله [1]!

« أيها الملك العظيم والإله الطيب : »

لقد حلت (بى) الشيخوخة ، وبدأ (ضعفها) وخرفها ، فنهضت الرعشة فى أوصالى ، ودبت الآلام فى أعضائى ، حتى أصبح القعود موجعاً ، والقيام مؤذياً . وخرس اللسان ، وغارت العينان ، وقل نورهما ، وصمت الآذان ، وضعفت الذاكرة ، وأصبحت كثير النسيان ، فلا أكاد أذكر ماحدث لى بالأمس ، وسد الأنف وصعب التنفس ، وفسد الذوق فأصبح الطيب خبيثاً والزكى كريهاً !

فأذن لى (مرنى) أيها الملك السعيد ، وقد كبرت سنى أن أعد ابنى لأن يحل مكانى (أصنع لى سندا) فأعلمه فن الحديث ، وألقنه علم الأولين .

فأجاب جلالته : « علمه الفصاحة والبيان أولا . . . وإنى لأرجو أن يكون مثالاً لأبناء العظماء . وليت الطاعة تكون رائده ، وعسى أن يدرك كل فكرة صائبة ممن يتحدث إليه ، فليس هناك من يولد من بطن أمه عالماً (فليس هناك والد يحرز الفهم من تلقاء نفسه) !

وانشرح صدر « فتاح حتب » لاستجابة جلالة الملك لرغبته ، وانصرف من لدن مليكه فرحاً مسروراً ، يتوكأ على عصاه إلى بيته . ولما استقر به المقام استدعى ابنه ، وألقى على مسامعه النصائح الغالية الآتية : —

« لايغرنك غزارة علمك ، فتعلو على الناس علوا كبيرا ، ولاتزه لكثرة معارفك ، ولا تباه بها ! ولا تختل بسببها ! ولا تستبد برأيك ، وعليك أن تشاور الجاهل والعالم ، والأحمق والعاقل على السواء لأن العلم بحر خضم لا ساحل له ...

وإن الحكمة (الكلام الحسن) أعز (أكثر اختفاء) من الزمرد (الحجر

(١) لقد نقلت هذه النصائح بتصرف فى اللفظ دون المعنى من كتاب مصر القديمة ، الجزء الأول تأليف سليم حسن بك :

(٢) تكتب الكلمة الأصلية بين قوسين حين نرى فارقا كبيرا في اللفظ .

الأخضر الكريم) ومع ذلك فقد تسقط من أفواه الإماء اللآئى يعملن فى إدارة أحجار الطواحين !

أسمع بالابن الذى يصغى عندما يتحدث إليه والده وابصر ، وإن المستمع يحبه الله . . . ومن لا يستمع تبغضه الآلهة ! . . . وينصب بذلك نفسه كل يوم هدفا سهلا للوم اللائمين !

وإذا دعيت لمائدة من هو أكبر منك مقاما ، فخذ مايقدم لك ولا تجل بطرفك بين أصناف الطعام ، بل انظر إلى مايوضع أمامك منه فحسب ، لأن ذلك (النظر إلى ما ليس أمامك من طعام) من سوء الأدب ، ومنه تشمئز النفوس . . ولا تتكلم إلا بعد أن يرحب بك صاحب الدعوة . . . واضحك حين يضحك . . فإن ذلك مدعاة لانشراح صدره وسرور قلبه . . فإذا مافعلت ذلك يقبل منك كل ماتقوله أو تفعله !

وإذا كان رئيسك معتل النسب ، وضيع الحسب ، فعليك أن تنسى ذلك وتذهل عنه !

ولا تعيد قط الكلمات البذيئة ، التى تخرج من فم غيرك فى ساعة غضب . التزم الصمت . . . ولا تتكلم إلا إذا كان كلامك بلسماً لجرح ، أو حلا لمعضل .

وإذا أصبحت عظيما بعد أن كنت صغير القدر ، أو مشهوراً ، بعد أن كنت خامل الذكر ، أو غنيا بعد أن كنت محتاجا ، فاذكر ماضيك ، ولا تتنكر لحالك فى الأيام الغابرة .

ولا ينبغى أن تتغنى بثروتك التى رزقك الإله (الملك) .

لا تنس أصدقاءك وقت سرائك ، لتستبق ودهم لساعة بأسائك .

اجعل قلب زوجتك فرحاً ، مادمت حيا ، فهى حقل مثمر لسيدها .

ولا تطمعن فى مال أقاربك .

أياك والشراهة فإنها داء عضال ، تضيع الأصدقا ، وتقضى على ثقة الواثقين بك ، وتفرق بين المرء وزوجه .

وإذا أردت أن تحافظ على ود أهل البيت الذى تدخله ، سواء أكنت سيدا ، أم خادما أم صديقا ، فاحذر القرب من النساء . وإن من الحكمة ألا تحشر نفسك معهن . وإن من استرسل فى صحبة النساء هلك ؛ وكثيرا ما هلك آلاف الرجال من أجل المتعة القصيرة التى تضيع كالحلم . ولا ينجى الإنسان من معرفتهن غير الموت .

كن باشا ، طلق المحيا ، مادمت حيا .

أقم العدل وعامل الناس على السواء .

كن صادقا ، فالصدق جميل وقيمته خالدة .

إن كنت حاكما فكن حليما عند ما تسمع شكوى المتظلم ، ولا تسىء معاملته حتى يبثك شكاته .

ولم تك الأخلاق العظيمة التى وصف بها ملوك الأسرة الخامسة مقصورة عليهم ، دون من سبقهم من الفراعين ، لا فرق بين القاعدين الوادعين منهم والهمامين الشميرين ، الذين بنوا وشيدوا ، فحسبهم بعض الناس ، لكثرة ما قاموا به من أعمال ضخمة ، ظلمة طغاة !

وإن قصة الملك « نبكا » وجاريته ، التى سقطت حليتها فى الماء ، فوقفت عن التجديف ، ولم تحفل بتوسلاته إليها ، ولا بوعده لها بحلية أجمل وأغلى ، وأصرت على موقفها حتى جىء لها بحليتها عينها ، لأكبر دليل على أن ملوك مصر السابقين كانوا أشد ملوك العالم كله ، قديما وحديثا استمساكا بالديمقراطية الحقة ، وأعطفهم على رعاياهم ، وأبعدهم عن الشدة والغلظة والجفاء .

ولم يكن الفراعنة كغيرهم من الملوك السابقين فوق القانون ، ولكنهم كانوا خاضعين لقوانين البلاد وتقاليدها ، وما جرى العرف به فيها (١) ليس فى ما يصدرن من أحكام

(١) يرى الأستاذ ترى أن هذه الحال كانت نتيجة لازمه للشروط ، التى قبل حكام المقاطعات المختلفه أن ينزلوا بمقتضاها عن حقوقهم للملك الفاتح مينا ، وضرب لها مثلا بالشروط التى خضعت بريطانيا بمقتضاها لوليم الفاتح .

أو أوامر فحسب ، بل وفى شئونهم الشخصية ، وحياتهم الخاصة ، فى ضياعهم وقصورهم .

ولم يكونوا يحكمون بلادهم حكما أوتوقراطيا مباشرا ، ولكنهم كانوا يحكمونها كما يحكم ملوك اليوم الديموقراطيون بواسطة موظفين عامين ، من وزراء وقضاة طبقاً لأحكام قانون عام راق ! وما كان لأحدهم أن يعاقب أو يدين إنسانا مهما حقر شأنه ، كما يشاء له هواه ، أو استجابة لبعض النزوات الجامحة التى تستولى على معظم النفوس البشرية فى ساعات الغضب ، وإنما يتبع فيما يريد الطريق الذى رسمه القانون ، مثله مثل أى فرد من أفراد رعيته سواء بسواء .

ولقد ارتكبت إحدى ملكات مصر جريرة ، لما نتبين نوعها ، فأمر زوجها الملك بمحاكمتها أمام قضاة عاديين ، شأنها شأن أقل خادماتها منزلة ! (١)

ولم يكن الفراعنة قاعدين ، طاعمين كاسين ، منصرفين إلى اللهو واللعب ، منغمسين فى الملذات والشهوات ، بل كانوا عاملين مجدين ، عليهم واجبات يؤدونها كل يوم بدقه وانتظام ! فلقد كانوا يستيقظون قبل مطلع الشمس ، فيعرض عليهم بريد الأقاليم ، فيفحصون رسائله فحصا دقيقاً ، ويناقشون محتوياتها مع من يريدون فحصها معهم من الموظفين ، ويملون الرد على الهام منها ، ويحيلون أمر التصرف فى غير الهام منها على الموظفين المختصين !

وعندما ينتهون من ذلك يغتسلون ، ويطهرون الطهور الدينى ، وكان يتطلب منهم شعائر خاصة ! ويرتدون حللهم الرسمية ، ثم يذهبون فى ركب حافل إلى المعبد ليقوموا بواجب تقديم القرابين .

---

(١) لقد وجدت هذه الحادثة مدونة على جدران مقبرة ونى الذى اختاره الملك « بيبى الاول لمحاكمة زوجته « ورت حتس » فأقرأ له حيث يقول : « لقد أصبحت كبير بيت الزينة فى عهد جلالة « بيبى الأول » وقد رقانى جلالته إلى رتبة سمير وكاهن أعظم لأوقافه الجنازية ، وبعد ذلك نصبني جلالته قاضيا لنخن ، ورئيس مجلس الستة الأعظم . . وبمناسبة قضيته فى الحريم الملكى ضد الزوجة الملكية » ورت حتس » وقد أديرت سرا ، فان جلالته قد منحني القيام بعمل تحقيق ، لأني كنت مثال الاستقامة ، ومحببا إلى قلب جلالته . . ولم يحدث قط أن فردا مثلى قد حقق قضية سرية خاصة بالحريم الملكى من قبل . . انظر سليم حسن بك : مصر القديمة ، الجزء الأول

وكانت العادة فى جل العهود أنه عندما ينتهى الملك من تقريب القربان ، يتقدم الكاهن الأعظم فيصلى على الملك ، ويطلب له من الإله الصحة والعافية والسعادة ، ثم يثنى عليه بما هو أهله ، وينوه بأعماله الجليلة ، ويشيد بإحسانه . . . ويختم خطبته بصب اللعنات على المسيئين ، وقد يتناول بعض أعمال الحكومة بالنقد والتجريح واللوم ، ملقيا وزرها على أكتاف المسئولين من كبار الموظفين ، كالوزراء وحكام الأقاليم . وقد يلحن فى القول لإغراء الملك بالقيام بعمل معلوم ، أو تخذيله عن عمل لا يحلو لرجال الدين !

وإذا ماقضيت الصلاة وقربت القرابين ، رجع الملك إلى القصر ليتناول فطوره ، (وكان طعام الفراعنة بسيطا لا تختلف أصنافه كثيرا عن أصناف طعام العامة!) بعد ذلك هو فى حل فى أن يتبع هواه وما يحلو له ، فقد يخرج للصيد أو القنص مع اتباعه المقربين !

وكان الملوك يكثرون من التنقل بين القرى والدساكر ليخبروا أحوال الرعية ، ويقفوا بأنفسهم على مافيها من عوج ليقيموه ، وما فيها من فساد فيقضوا عليه ، ويتعهدوا منابت الخير فيها ، ليرفدوها بعنايتهم ، وليستوثقوا من أن الولاة قائمون بأعمالهم ، أو مستنيمون إلى الأهمال ، نائمين فى ظلال نومة الضاجع الآمن .

الفصل الثامن

أديلت الأسرة السادسة من الأسرة الخامسة فى ظروف غامضة، لا نعرف عنها مبيناً ، فهل جاءت الأسرة السادسة نتيجة لثورة سياسية قام بها أحد حكام المقاطعات الذين بدءوا يتطاولون بأعناقهم فى عهد الأسرة الدائلة ، أم هى ثورة دينية تزعمها كهان فتاح وأنصارهم ضد أبناء رع وخرافة مولدهم !

ذلك مايزال غيباً ، بيد أننا نلمح منذ الأيام الأولى من قيام الأسرة السادسة رجوعاً تدريجياً إلى عبادة الفتاح ، ونزوعا إلى مدينته منف

وأول ملوك هـــذه الأسرة ببى الأول ، وكان كرأس كل أسرة ومؤسس كل دولة هماما شميراً ، سريع الفهم ، فاضل الحكم ، صادق الفراسة ، متحريا ما يرضى رعيته فاستوثقت له ، وركنت إلى طاعته ، وأحبته حباً دل عليه إقبال الناس فى عهده على إطلاق اسمه على أبنائهم المولودين فى عهده السعيد .

ببى الأول

وبلغت مدينة منف فى عهد هذا الفرعون العظيم أوج عظمتها، فأصبحت مدناً فى مدينة، إذ قام ببناء حى جديد جنوبيها جعله مقرا لملكه ومقعدا لتاجه ، ومقاماً لكبار موظفى الدولة . وحذا حذوه شيعته من الأمراء والنبلاء ،فشيدوا فيه قصورهم. وسارع إليه كبار التجار فبنوا فيه متاجرهم ، وهاجر إليه الفنانون الذين أنتجت

قريحة أحدهم تمثالا للملك [١] ، رغب صانعه عن الحجر على اختلاف أنواعه فصنعه من النحاس ، فجاء فريدا فى نوعه ، وآية فى دقة صنعه ، حتى لقد فضله بعض فنانى العصر الحاضر على تمثال خفرع البديع !

ولم ينس الملك بيبي الأول أن يشيدهرماً (٢) يضم رفاته بعدموته، وقدأطلق الملك على الحى الجديد والهرم معاً اسم (من — نفر) ومعناه « المكان الطيب ، أو الجمال الباقى ! ولم يلبث هذا الاسم أن أطلق على المدينة كلها ، من إطلاق الجزء على الكل ، وحرف فيما بعد إلى منف بالقبطية : ومنفيس باليونانية ، ومنف بالعربية ، وممفيس باللغات الغربية الحالية ؛ كما أطلق عليها فى التوارة نوف .

وقد طال عمر بيبي الأول ، وطال أمد حكمه ، ودام القوى العادل المحبوب إلى آخر أيامه ، وظل الخلى السعيد، حتى رنقت صفوحياته جريرةزوجته، التى لا نعرف كنهها ولا نوعها !

ولما شعر بيبي بصفاء الرعية له ، أعد جيشاً لجباً ، وأسطولا قويا، غزا بهما أرض الشام فى البر والبحر ، حتى لقد شبهه المؤرخون فى ذلك بالملك الفاتح تحوتمس الثالث ،ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الغزوة التى قام بها بيبي الأول لم يكن الدافع إليها شهوة الاستعمار وحب الفتح ، وإنما كانت دفاعاً عن مصر فى صورة هجوم ! إذ جاءت العيون إلى الملك العظيم بخبر اقتراب أخلاط من البدو والقبائل الراعية من حدود مصر ، فرأى من عزم الأمور أن يبدأها قبل أن تبدأه !

وطار بيبي الأول إلى أفقه ولحق بريه ، وخلفه فى الملك ابنه « مرن رع ، وكان

---

(١) كشفه الاثرى كويبل ومعه تمثال صغيرمن نفس المعدن فى «الـكاب» ويعتقد بترى أنهما للملك بيبي الاول ، أحدهما له وهو صغير والآخر له أيضاً وهو كهل، على حين ذهب غيره إلى أن التمثال الصغير لأحد أبنائه . ويعتقد سليم حسن بك أن التمثال من « أعظم الـكنوز التى عثر عليها علماء الآثار فى عصرنا الحالى »

(٢) بنى الملك بيبي هرمه بحيث يكون مظهره جميلا ، ولم يعبأ بما يخفى على الناس ، إذا بنيت حوائطه من الحجر الأملس الجيد ثم حشيت بقطع صغيرة من الحجر .

عند توليته حدثا لم يبلغ الحلم . وعلى الرغم من أنه مات قبل أن يتم العقد الثانى [١] فقد تم فى عهده وبأمره أعمال جليلة، أهمها وأحراها بالذكر شق خمس قنوات فى مجرى النهر، خلال صخور الشلال الأول، فأصبحت تلك الشقة من النهر صالحة للملاحة ، بعد أن كانت من قبل عقبة كأداء فى سبيلها، وسارت السفن صاعدة إلى بلاد النوبة وما والاها من الأقطار ، وعادت مشحونة بمنتجات الجنوب !

ونشطت فى أيام الملك الصبي تجارة القوافل وبعثات الاستكشاف، واشتهر من بين رؤساء القوافل الأمير حرخوف(٢) الذى قام فى عهده بثلاث رحلات أو تجريدات، وصل فى بعضها إلى بلاد يام ، وعاد فى آخرها بنحو ٣٠٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس والزيت . . . وجلود الفهود والعاج . . . والمنتجات الطبية ، (٣)

ومات الملك الصبي، وخلفه أخوه پيپي الثانى، وهو لا يتجاوز السادسة من عمره وطال عمر پيپي الثانى حتى بلغ المائة ، ومن طريف ماذكره عنه العالم الجغرافى الإسكندرى الكبير إراتوثنيس أنه حكم مائة سنة إلا ساعة واحدة ، ويعد هذا إن صح أطول حكم فى التاريخ !

وكان عهد پيپي الثانى الطويل، عهد سلم وأمن ورخاء ، أهم حوادثه المتاجرة مع الأقطار القاصية ، وحملة حرخوف الرابعة ! وهى أعظم رحلات أقدم الرواد فى التاريخ .

ففيها توغل بصحبة حرس شديد ، فى أواسط أفريقية ، وفى أثنائها أبحر وأصحر ، وأنجد وأغور ، وحارب وانتصر . وعاد ببضاعات غالية ، وتحف ثمينة ،

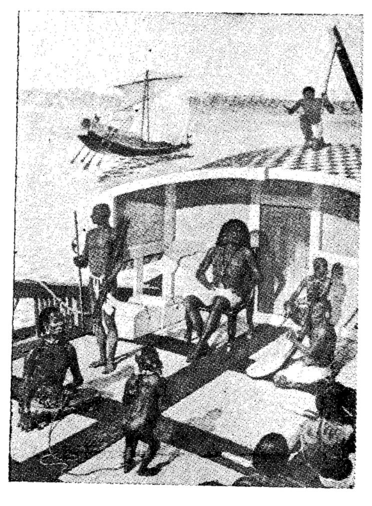
---

(١) لقد سلمت مومياء الملك من عبث لصوص المقابر ، ولما كشفت وجدت خصلة الشعر التى تميز الصبية عند قدماء المصريين لا تزال عالقة برأسه ، وهذا ما جعل المؤرخون يجزمون بأن الملك مات وهو مازال حدثا .

(٢) كان حرخوف سمير الملك ، وكاهنه المرتل ، ونائبه فى نخن ، وحامل خاتمه ، ومدير القوافل ، وكاتم أسرار الأوامر الخاصة بالحدود الجنوبية .

(٣) سليم حسن بك : مصر الفرعونية ، الجزء الأول ص ٣٨٢ .

ارسل بخبرها إلى سيده الملك، فلم يبتهج لشيء منها إلا للقزم الذى « يرقص رقصا مقدساً كالقزم الذى أحضر إلى الملك أسيسى » . فكتب الملك للأمير حرخوف يستحثه للحضور فى أقرب مدة . ومن كتاب الملك له « اترك كل شيء آخر ، واحضر معك هذا القزم ، حتى يقوم بالرقص المقدس ، ليسر قلب ملك الوجهين « نفر كارع » عاش أبديا ومخلدا . وحاذر أن يسقط فى الماء . وإذا ما نام فلينم حوله عشرات من رجالك . وتفقده عشرات المرات كل يوم . وإذا أحضرته سليما فسيجازيك أحسن الجزاء !



حرخوف والقزم اللعوب

وفى أواخر عهد هذه الأسرة ضعفت الحكومة المركزية، فزاد نفوذ الأمراء، أى حكام المقاطعات ، فاستقلوا بحكمها أو كادوا ، وأصبحت مصر بذلك مقسمة إمارات صغيرة ، كما كانت قبل عصر مينا مباشرة .

وخيم بمصر فى هذا العهد ظلام دامس، لا نكاد نستبين منه إلا فتنة عمياء ، وحبلا مضطربا ، وزمراً مائجة ، وحروباً شعواء ، لا نعرف من مثيرها ، ومن مدبرها ومديرها ! ولا ندرى أين وقعت وقائعها (١) ولكننا نلمح آثارها فى تخريب المعابد

---

(١) إنا نرجح أن جموع البدو الذين أناخوا على مقربة من حدود مصر ، وخف ببي الاول لطردهم ، خوفاً من انتهازهم الفرص لغزو مصر ، عادوا إلى تخوم مصرحين شعروا بضعفها ، ولما رأوا الفرصة سانحة لغزوها غزوها ، ولم يتمكنوا لانحطاطهم من إيجاد حكومة قوية ، فساد البلاد الفوضى التى وصفها كتاب مصر المعاصرون .

وتدمير القصور، وتحطيم التماثيل، وإلقاء أشلائها فى الآبار !

ولقد تأثر المصريون المعاصرون لهذه الحال التعسة، التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر، وترك لنا بعض كتابهم وصفاً بليغاً، يكاد يسيل دمعا، ويقطر دماً، ويفيض أسى وألماً. فاقرأ لهم بعض ما كتبوا !

« لقد طرد المصريون من ديارهم، وحل فيها سكان الصحراء، وزال سلطان فرعون، واغتصبت أملاكه، فاختل النظام واضطرب حبل الأمن، وانطلق المجرمون من عقالهم، ونشروا الفزع والرعب بين الناس، وتكونت عصابات آثمة عاثت فى الأرض فساداً، فكان الزراع لذلك يغدون إلى حقولهم، ويروحون إلى دورهم، متنكبين دروعهم حاملين رماحهم وأقواسهم !.. وحل الضنك بالناس، ومسهم الضر، وخلقت ثيابهم، وأصابهم الجوع، فأكلوا الحشائش، واختطفوا القاذورات من أفواه الخنازير، وعمهم الحزن، وحالت رنات الفرح، إلى أنات حزن. وانفصمت أواصر القربى، فقتل الأخ أخاه، وضاق الكرام ذرعا بالحياة ! حتى قال قائلهم « ليتنى مت قبل هذا .. واستهان الناس بالملك، وأظهر بعضهم العداء له وأصبح الحمقى يشكون فى وجود الإله، فيقولون. « لو عرفنا مستقرا للإله لقربنا له قربانا » .

وعلى الرغم من وفاء النيل وغمره الأرض بالماء، والخصب والنماء، فقد عم البلاد القحط واشتدت اللازبة وانتشر الوباء، وتخرم الناس أزواجا وجماعات، وكثر عدد الموتى حتى استحال دفنهم، فألقيت جثثهم فى الماء، كما تلقى الماشية، الميتة، وأصيب التماسيح لذلك بالتخمة، وأضرب الإله خنوم عن العمل فأجدبت النساء.

وانقلبت الأوضاع المرعية رأساً على عقب. فأصبح مهندسو السفن الملكية عمالا أجراء، وتولى الأنجاس الوظائف المقدسة، وتبوأ اللصوص منصات القضاء وهجرت ربات الخدور قصورهن ليعملن أجيرات فى وهج الشمس، وأصبحت

النبيلات عاطلات . يسرن فى أسمال بالية ، وحلت الجوارى أجيادهن بالذهب والياقوت واللازورد ، وخطرن فى أثواب غالية ، وأصبحت من كانت ترى وجهها فى الماء تملك مرآة .

وكأنى بالكاتب كان يشعر بمسئولية الملك ، فاقرأله يخاطبه :

إنك راع ، وفى يدك قيادة رعيتك ، والفطنة لاتعوزك ، ولسنا نشك فى صدق قولك ، ولكنك لا تنتفع بما وهبك الإله ولا تنفع به . . « فالفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلادوعرضها ، ولكنك مع ذلك تغذى بالأكاذيب التى تتلى عليك ، فالبلاد هشيم ملتهب ، والإنسانية منحلة ، والأخلاق فاسدة . . فليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك [١] » .

(١) أنظر سليم حسن بك : مصر القديمة . الجزء الأول

مراجع الكتاب

(١) المراجع العربية

١ — القرآن الكريم :
٢ — الإنجيل . . :
٣ — ابن أياس . . : تاريخ مصر
٤ — عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار الخ
٥ — أحمد باشا كمال . : بغية الطالبين
٦ — احمد باشا كمال . : ترويح النفس
٧ — أحمد بك نجيب . : الأثر الجليل لقدماء وادى النيل
٨ — استيندورف . : ديانة قدماء المصريين
٩ — عباس محمود العقاد : الله
١٠ — سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى
١١ — سليم حسن بك : الأدب المصرى القديم
١٢ — سليم حسن بك : مصر القديمة (الجزء الأول والثانى والثالث)
١٣ — محرم بك كمال : تاريخ الفن المصرى القديم
١٤ — الدكتور أحمد بدوى : فى موكب الشمس
١٥ — الدكتور إبراهيم رزقانه : العائلة البشريه
١٦ — الدكتور إبراهيم رزقانه : الحضارات الخ
١٧ — الدكتور الحفنى . : موسيقى قدماء المصريين
١٨ — رمزية محمد الغريب : الجغرافيا التاريخية لأقليم قنا
١٩ — الأستاذ محمود درويش : رحلة إلى منف وسقارة
٢٠ — مخائيل بك شاروبيم : الكافى

(٢) المراجع الإنجليزية

1— E. Hutington : The Human Habitat.

2— E. Huntington : Ciimate and Civilisation.

3— E. Huntington : The Pulse of Asia.

4— E. Huntington : » » » Progress.

5— E. Huntington : The Character of Races (New - York **1924**).

6— Flinders Petrie : The Arts and Crafts of Ancient Egypt.

7— » » : The Egypians (H.O.N.)

8— » » : Pyramids and Temples of Gizeh.

9— J. Breasted : A History of Egypt.

10— G. Ebers : Egypt Descriptive ,Historical and Picturesque. Vol I & II.

11— Sir Charles Wilson : Picturesque Palestine aud Egypt. **Vol IV**.

12— Emil Lcdvig : The Nile in Egypt.

13— George Rawlenson : Ancient Egypt.

14— J. A. Hamerton Wonders of the Past Vol I. II.

15— William C. Hayes : Daily Life in Ancient Egypt.

16— H. G. Wells. The Outline of History.

17— Flenley and Weech : World History.

18— Philip Schan : Through Bible Lands.

19— British Museum : A Guide to tbe Egyptian Collections.

20— S. H. Robinson : Civlisation.

21— Robert E. Anderson : The Story of Extnct Civilisation of the East.

22— The Egyptian Tourist Department : Egypt Throughout the **Ages**.

23— James Baikie : Peeps at Ancient Egypt.

42— M. D. Frazer : The Pyramids.

25— M. Edgar ; The Great Pyramid.

26— L. Seiss ; A. Miracle in Stone etc.
27— Prof Piazzi Smith : Life and Work at the Great Pyramid.
28— Colonel Howard Vyse : Cperations at the Pyramids.
29 Wright : The Quarernary Ice Age.
30— D. G. Hogarth ; The Aneient East.
31— A. C. Haddon : The Wanderings of Peoples,
32— Encyclopedea Britannica.
33— J. A Hammarton : Universal History Vol I.
a. H. J. Fleure : The Primitve Community and the origin of Races.
b. J. L. Myres : Climate and Geography — Their Influence on History.
c. G. E. Smith : The idea of Supernatural in Human Dvelopment.

(٣) المراجع الفرنسية

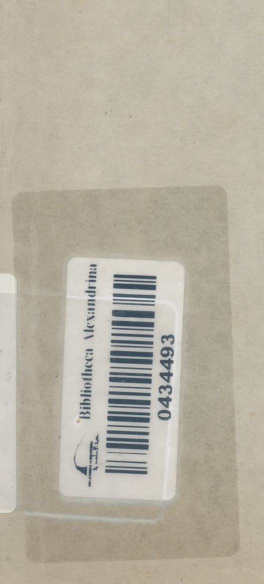
1 — E. Demolins : Comment La Route crée Le Type Social.
2 — Jean Capart : Memphis, a L' Ombre des Pyramides.

فهرس

التصويب

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٤	١٠	بلورتارك	بلوتارك
١٦	٢٣	غربيه	غربيها
٢١	١٨	العجل	الجعل
٢٢	١٧	أسوط	أسيوط
	٢٦	اشتيافها	اشتياقها
٢٣	١٥	اشباة	أشباه
	١٩	شميليون	شمبليون
	٢٠	يعدم	بعدم
	٢٢	متهم	منهم
٢٤	٢	منشا	منشأ
٢٧	١	الثقاة	الثقات
٢٨	١١	العرض	الغرض
٢٩	٥	إن	ابن
٣٤	١٩	وراء	وراءه
٣٨	٤	فيتاغورس	فيثاغورس
٤٢	١٢	له الهادمون	الهادمون
	١٣	وحشد	له وحشد
٤٣	٨	معيدها	معبدها
٤٤	٢	صفية	صفيه
٤٨	١٨	كانث	كانت
٥٣	٩	الآلهة	الالهة
٥٤	٢	آلهة	إلاهة
٥٧	١٢	تقاده	انتقاده
٦١	١٧	نصل	نصل
	١١	Maues	Manes
٦٣	٢	استاع	استطاع
	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	٧	فاتمروا	فأتمروا
	١٢	يزحزحه	بزحزحة
	١٣	مؤالخ	مؤرخ

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٦٤	٦	فسوعان	فسرعان
٦٦	١٧	اكتافه	اكنافه
٧٢	٨	صمفات	صفات
٧٢	٨	يتقص	يتقمص
٨٠	١	جوأره	جواره
	١٠	بتغير	بتغيير
	٢٣	عل	على
	٢٢	جباجبا	جبا
	٢٣	مقر الحامية	مقرا لحامية
٨٩	٢	بهجة	ببهجة
٩١	٣	تعددت	تعدت
	٢٦	مقبر	مقبرة
٩٣	١١	لملك	الملك
٩٦	٢٤	يظهران كاتظهر	يظهران كما تظهر
٩٩	١٠	القصور	القصر
	١٣	الدقون	الداقون
١٠١	١٦	الجالية	الحالية
١٠٢	١٩	Flinder	Flinders
	٢٦	Voll	Vol. I
١٠٤	١٣	Lnmense	Immense
	٢٠	كيوبسن	كيوبس
١٠٩	١٩	أن	أنه
١١٠	١٤	أنقتبت	انفتقت
١٢٣	٢	كست	كسيت
١٢٨	١	العوب	الغوب
١٣١	١٢	يلقيه	يلقبه
[illegible]	١٤	بأجر	بآجر
[illegible]	١١	شيسكاف	شبسكاف
١٣٥	٧	زوحها	زوجها
١٤١	٢	برؤيتها	برؤيته


Bibliotheca Alexandrina
0434493